تراتيل النيل

«قصص من الأرض الطيبة»

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسـم الكتـــاب: تراتيل النيل «قصص من الأرض الطيبة»
المـــؤلـــف: أ. د. أمير إبراهيم
موضوع الكتاب: مجموعة قصصية
عدد الصفحات: 186 صفحة
عـدد المـــلازم: 11,5 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 20
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـــم الإيـــداع: 19362 / 2025
الترقيـم الـدولي: 978-977-8796-53-7

القاهرة - جمهورية مصر العربية
01012355714
01152806533
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محفوظة جميع الحقوق

تراتيل النيل

«قصص من الأرض الطيبة»

مجموعة قصصية

أ. د. أمير إبراهيم

دار البشير

(الحادثة الغامضة لآسيا بنت حاج الطاهر)

..أحمد..

لو أننا نسمع ما يُقال عنا حين ندير ظهورنا،

لأصبحت وجوهنا أقل طلاقةً، وابتساماتنا أكثر حذرًا في وجه كثيرٍ من الناس.

غير أن حديث الناس عن آسيا بنت حاج الطاهر... كان له طعمٌ آخر.

يُقال في غيابها، ويُقال في حضورها،

ويُنقل إليها أحيانًا على ألسنة محبّيها... وعُذّالها على السواء.

تفنّن الناس في الحديث عنها، وعن ذلك البريق الغامض المستقرّ في عينيها.

همس بعضهم أن السماء قد مسحتها بالبركة، وادّعى آخرون أن كمينًا نُصب لها في طريق عودتها المعتاد.

بل إن بعضهم قال إن روحًا خفيّة تمشي إلى جوارها.. روحًا لا تنتمي إلى هذا العالم الأرضي.

كنت أتساءل إن كنت أراها كما يراها الآخرون فعلًا.

منـذ اللحظة الأولى التـي وقعت عيني عليها، اسـتيقظ في داخلي شيءٌ لا يمكن تسميته.

رجفة خفيفة، كأنها صدى حلمٍ يوشك أن يُنسى.

وفي تلـك اللحظة، شـعرت أننـي وجدت نصفي الآخـر، الذي كانت نفسي تنشده عبر دُهور لا تُعدّ.

كانـت تمـشي بخفة لا تشـبه أحـدًا في هـذه الأرض النائية، سرٌّ لم أفلح في فكّ رموزه.

ربـما كان في سـكينتها أمام الشـدائد، أو في إيقاع كلامهـا المتأنّي، كأنها تزن الحروف قبل أن تفلت من بين شفتيها النديّتين، المكتنزتين بلون التمر.

أو في تلـك الابتسـامة الغامضـة الواثقة، التي توحـي بأنها تحمل سرًّا أقدم من الزمان.

لم تكن ابتسـامتها كابتسامات بنات القرى. كأنها عبرت من زمنٍ آخر، وتركت في الهواء أثرًا لا يُمحى.

أم لعلّ السر يكمن في خطوها، وكأنها تمشي فوق الغبار لا عليه، وحذائهـا المنتقـى بعناية، والذي كان يبقى لامعًا وسـط ترابٍ لا يعرف الرحمة.

ليلة البرق وشجرة اللّالوب.

في الليلة التي شقّ فيها البرق شجرة «اللّالوب»، كانت هناك.

أذكرهـا جيـدًا.. ليس بسـبب هديـر الرعد المدوي، ولا بسـبب الوهج الذي شطر السماء،

ولا حتى بسبب الحشود التي هرعت إلى الموقع.

أذكرها لأننا عندما وجدناها تحت الشـجرة العتيقة، كان وجهها يضيء بنورٍ لا يُعرَف له مصدر.

لم تنطق. لم تتحرّك.

كانـت مسـتلقية، أنفاسـها ضحلـة، كأن الهواء المحـترق التصق بجلدها في أنينٍ صامت.

في تلك الليلة، بدأت الهمسات:

«ضربها البرق لأنها وطئت أرض الجن!»

«بل إن البرق خطّ رموزه في عينيها.. شفرة لا تقرؤها سواها!»

«يقولون إنها مسحورة!»

وآخرون أقسـموا إن الأمر مدبَّر.. فقد ظلت تشتكي من كاحلها الأيمن زمنًا طويلًا.

لكنني لم أقل شيئًا.

راقبت فقط، بينما نسجت القرية من حولها أساطيرها..

في محاولة يائسـة لاختراق المجهول، لجعل الغيب شـيئًا ملموسًـا يمكن إدراكه.

لكن آسيا لم تكن يومًا شيئًا يُحتوى.

كانت مثل ظلٍّ يتنقّل بين الناس، لا ينتمي إلى عالمٍ بعينه.

لحظات على ضفة النيل

مرّت الأسـابيع، وأدركت رويدًا رويدًا أن آسـيا قد ملكت قلبي وأصبحت جزءًا من حياتي.

ليس بالطريقة التي تدخل بها الفتيات حياة الرجال في القرى، عبر اتفاقات هامسة بين الأهل أو مغازلات حذرة تحت العيون.

في هـذا الركن المحافظ، كنا أنا وآسـيا نسـترق اللحظات النادرة للبوح الخافت عند ضفة الماء.

وفي إحدى تلك اللحظات، التي ننتظرها على فارق الصبر، حيث الهواء مشبعٌ برائحة الطمي الرطب ودخان النيران البعيدة، جلسنا على شاطئ النهر.

النيل أمامنا، ممتدٌّ في سيره الأبدي،

يتماوج تحت وطأة القمر،

والنسيم يهدينا أنفاس الزهر.

ثم خرج صوتها هادئًا، مسـترخيًا، بلا اسـتعجال، كجريان النهر نفسه.

لم ينبع من حنجرتها فحسب، بل من ركن قديم في الزمن، لم تمسّه يد:

«أنت يا يا نيل، يا سليل الفراديس...

نبيلٌ، موفقٌ في مسابك».

تنساب الكلمات في سيمفونية من خرير الماء، ممزوجة بحفيف الأشجار، وزقزقة العصافير،

كأن الطبيعة كلها تحتفل بموكبٍ خالد من الجمال.

في لحظةٍ، حلق بي صوتها فوق السحاب، روحًا ملائكية، طليقة ترفل في مهرجان من الطرب،

ثم ما لبث أن شدّني شيء في صدري، ليعيدني إلى ثرى الأشباح.

«آسيا»، قلت، «هل كان البرق لعنة... أم نعمة؟»

ضحكت ضحكة ناعمة: عارفة. وأمالت رأسها قليلًا،

أصابعها المرتجفة تلامس يدي،

ونظرتها التائهة في الأفق لم تكد تلامس عيني.

ضحكتها تلك كأنها تحمل سرًّا لا يُفصح عنه.

كانت كافية لتعيد ترتيب خرائط الحبور في داخلي.

ثم تابعت، بصوتها الذي عاد ينساب كالنهر:

«حضنتك الأملاك في جنة الخلد...

ورقّت على وضي عبابك».

ثم صمتت.

استدارت نحوي،

وعيناها عصيّة على القراءة، وهمست بصوت بالكاد يُسمع:

«البرق لم يكن لعنة..

كان رسالة».

سرت في داخلي قشعريرة غريبة.

«رسالة؟» رددتُ.

«لمن؟»

اكتفت بابتسامة، ليست ابتسامتها المعتادة.

«لنا كلنا».

وقبل أن أجيب، اهتزّت السماء من جديد.

شـقّ وميـض فـضي أبيض الأفـق، وأضـاء سـطح النيـل كالنار السائلة.

التفتُّ إليها.

كانت تحدق في السماء، عيناها متسعتان، كأنها ترى شيئًا لا أراه.

ثم همست، بصوت بالكاد يصلني:

«أحمد...

لا أظن أن حكايتي مع البرق قد انتهت...»

آمنة: رؤية مختلفة.

لم أكن بحاجة إلى أن أرى البرق مرةً أخرى لأدرك أن آسيا كانت مختلفة.

كنت أعلم ذلك منذ زمن بعيد.

قبل أن تنشَقَّ السماء فوق شجرة «اللّالوب»،

وقبل أن تستسلم قريتنا لحكايات الجنّ والرموز الخفية.

لكن بعد تلك الليلة، تغيّر كل شيء.

كأن العالم بدأ يرى ما كنت أراه منذ البداية.

كأنهم أبصروا أخيرًا جوهرها:

كائنٌ لا يُمسّ، برقٌ يلمع ثم يختفي.

كنت أراقبها قبل أن تقع عينا أحمد عليها.

في البداية، كان الأمر مجرد فضول، تساؤل لا أهمية له.

لكن شيئًا فشيئًا، وجدتني أقيس المسافة بيني وبينها،

وأعـدّ اللحظـات التي تملأ فيها الغرفة، قبـل أن تختفي كظلٍّ عند الغروب.

ثم جاء هو، مدرّس التاريخ الجديد القادم من الخرطوم، غامض، متفرّد.

عيناه تائهتان في عوالم لا نعرفها.

كان كثيرًا ما يجلس تحت شجرة النيم العتيقة،

ظلُّها السخي يحتضن ساحة المدرسة المُرهقة تحت شمس دار الريح القاسية.

منغمسًا في دفاتره، كأن العالم قد انسحب من حوله إلى صمتٍ سرمدي،

لكن ما إن تقع عيناه على آسيا، حتى يعود فجأة إلى عالم الحسّ،

وجهه يضيء كقطعة فخار مكسورة وجدت نصفها الآخر،

وينظر إليها كما ينظر العطشان إلى أول قطرة بعد قحطٍ طويل.

حينها، يدق قلبي كجرس الحصة التالية.

وأسأل نفسي...

ما الذي يشده إليها؟

تحرّرها؟ ترّهاتها الشعرية؟

أم فلسفتها المتعالية وهمهماتها الغريبة؟

في ذلك الصباح، جلست تحت شجرة النيم، أصحّح دفاتر الطالبات كما تمليه عليّ مهنتي.

قلمي الأحمر يخط الدوائر حول الأخطاء، لكن أفكاري كانت في مكان آخر.

سمعت وقع خطواتها قبل أن أراها.

حتى خطواتها كانت مختلفة.

لم تكن مسرعة، ولا مترددة، بل تمشي بثقة هادئة.

«آسيا!» ناديت، دون سابق نيّة.

توقّفت، واستدارت نحوي.

ثم ابتسمت، تلك الابتسامة التي توحي بأن شيئًا ما سيحدث، لكنه لا يحدث أبدًا.

جلست بجانبي على المقعد الخشبي، راحتاها مستريحتان في حجرها.

«كيف حالكِ يا آمنة؟»

كان صوتها ناعمًا، أنعم مما ينبغي.

حاولت أن أُبقي صوتي متماسكًا.

«بخير... وأنتِ؟ كيف حالك؟»

أشاحت بنظرها إلى ضفة النيل البعيدة، حيث المياه تلمع تحت شمس خفيفة.

ثم قالت، كأنها تُسرّ لنفسها أكثر مما تخاطبني:

«أنا مثل ذلك النهر يا آمنة...

ما ترينه على السطح، ليس كما في العمق».

قشعريرة تسلّلت عمودي الفقري.

أردت أن أسألها عن البرق، عن تلك الليلة، عمّا رأت وعمّا لم تقله.

لكن الكلمات علقت في حلقي.

كنت أريد أن أواجهها بشيء أعمق:

نظراته إليها.

كأنها شيء نادر.

كأنها تستحق أن يُنظر إليها.

وكأنني... لا أستحق ذلك.

لكنني كتمت الحديث في حلقي.

آمنة: المرآة والأسرار

في ذلك اليوم، بعد الحصة الرابعة، دخلتُ مكتب المعلمات.

لم أكن أفكّر في شيء، كان يومًا آخر، حصة جديدة، دفاتر جديدة.

لكنني رأيتها.

واقفة أمام المرآة.

لم تلحظني.

كانت تصلح خصلة متمرّدة من شعرها،

أصابعها تتحرك برفق، دون عجلة.

ثم، كأن قوة خفية جذبتها، أمالت رأسها واقتربت من الزجاج.

ثم... ابتسمت.

ابتسامة بطيئة... غامضة.

ابتسامة أعرفها.

تقدّمت خطوة.

انعكاسها في المرآة كان يرتجف كضوء شمعة.

توقّف تنفّسي.

رفعت يدها، وأصابعها تلامس الزجاج برقة.

لكن انعكاسها... تأخّر.

حركة خفيفة منّي، بالكاد تُلاحظ.

لكن آسيا كانت في عالم آخر.

ثم بدأت تغني، بصوت هامس:

«كلّـميني يا مراية... شايفاك طربانة

حكوا ليكي حكاية... ولا كنتي معانا؟

ولا إنتي بتقري يا ماكرة ظنوني؟»

قشعريرة باردة زحفت على جلدي.

لم تكن تغني لنفسها.

ولم تكن تغني لي.

كانت تغني لشخص آخر.

شخص لا أراه.

«آسيا...» همستُ، خائفة من كسر السحر الذي غلّف الغرفة.

استدارت ببطء.

وفي تلك اللحظة، لم أعد واثقة، هل استدارت حقًا؟

أم أن انعكاسها سبقها؟

أم أنها سبقته؟

لم أعد أعرف.

ولا أردت أن أعرف.

نظرت إليّ. نفس الابتسامة. نفس النظرة الغامضة.

لكن حين عدتُ بعيني إلى المرآة، لحظة خاطفة.

كانت شفتاها لا تزالان تتحركان.

كأنها لا تزال تغني.

رغم أن الغرفة غاصت في الصمت.

«المرآة تكشف ما نحاول أن نخفيه، يا آمنة».

كان صوتها خفيفًا، كأنه دعابة.

بلعتُ ريقي.

«وإنتِ؟ ما الذي تُخفينه يا آسيا؟»

ضحكت.

ضحكة خفيفة، حرة، كأن الكون نفسه انحنى ليستمع.

«لا شيء...

البرق كشف كل شيء».

آسيا: البرق والتغيير

لم يكن البرق مجرّد وميضٍ عابرٍ في سماء ذلك المساء.

كان كأنه نصلٌ من الضياء، شقّ عتمة العشاء نصفين.

أما الأرض العطشى، فقد حبست أنفاسها، مترقبةً وعد السماء بالسقيا.

وحين أفقت، شعرت أن شيئًا في داخلي قد تبدّل...

شيء لا أعرف له اسمًا.

لأيام، شعرت بثقل العيون.

في الأسواق، في مجالس الأهل بعد غيابٍ طويل، حتى من خلف الأبواب المغلقة.

كانوا يظنون أنني لا أراهم.

لكنني كنت أرى كل شيء.

كانت آمنة تراقبني أكثر من الجميع.

في عينيها وميضٌ لا أستطيع أن أفسّره، حذر؟ فضول؟ شيءٌ بينهما.

آسيا: الأشجار والأحلام

ثم جاء يوم الاجتماع.

وقفتُ في ساحة المدرسة، أمام المعلمين والمعلمات.

نظراتهم كانت مزيجًا من الفضول، الريبة، والتساؤل الصامت.

قلت بصوت ثابت، لا يهتز:

«مدرستنا بحاجة إلى أشجار.

والطالبات يجب أن يزرعنها.

كيف يمتدّ نيلنا العظيم خلف الفصول، ولا تظلّل ساحتنا سوى شجرة يتيمة، لا يقف تحتها إلا المعلمون؟»

كانت نظراتهم كتلك التي يرمقون بها المرشحين في الانتخابات.

أولئك الذين لا يظهرون إلا عند الحاجة إلى الأصوات.

ارتفعت الهمسات.

قالت إحداهن ساخرة:

«وماذا ستجني البنات من الزراعة؟

الشجر لا يمنح شهادات!

ومن أين لنا الشتول؟ من الحكومة التي نسيت رواتبنا؟»

لم أُجِب.

لكنني رأيته.

كان هناك. أحمد.

لم تكن نظرته نظرة زميلٍ لمعلمة،

بل نظرة باحثٍ عن سرٍّ لا يُقال.

التفتُّ إلى آمنة.

كانت تنظر إليّ نظرة انتظار.

كأنها تقول: «ها هو الدليل».

وبعد أسبوعين، وصلت شاحنة محمّلة بشتلات النيم، والحمضيات، وأكياس من البذور.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم.

كنت ممدّدة، أحدّق في السقف، أفكر في الغد.

كم أنا مبهورةٌ بفكرة صغيرة ستصير حكاية.

وكم أنا خجلى، لأنني اتخذتُ خطوةً كان الرجال دومًا من يتخذونها.

كم هو غريبٌ أن تكوني البداية.

أن تزرعي شيئًا سيبقى بعدك، ويحمل اسمك.

وكم هو مقلقٌ أن تدخلي أرضًا طالما كانت حكرًا على الرجال.

متى فقدتُ هدوئي القديم؟

أين ذهبت تلك الابتسامة المذعنة؟

لم أسمع يومًا عن برقٍ يجرّد فتاة قروية من حيائها.

ليس هنا، عند منحنى النيل الكبير.

في طابـور الصبـاح، وقفت أمـام الطالبات، أحمل شـتلة صغيرة، وأصابعي مغطاة برائحة التراب.

«كل صفٍّ سيزرع شجرة.

ستبقى هنا بعد أن تغادرن.

ستكون شاهدة على أنكن كنتن هنا».

في البداية، كانت الحماسة باردة.

لكن بعد أيام، بدأت الأغصان الصغيرة تمتد نحو الشمس.

لم يكن ذلك مجرّد غرسٍ لأشجار،

بل كان دليلًا على أننا مررنا من هنا،

وتركنا أثرًا يستظلّ به من يأتي بعدنا.

آسيا: التراب والخُضرة

لكن خلف سور المدرسة، كان الأمر أصعب.

حين دعوت نسـاء القرية لزراعة الخضروات في باحات منازلهن، ضحكن:

«وهل ينقصنا تعب؟

ألا يكفينا تربية العيال، والغسيل، والطبيخ؟»

لكنني لم أستسلم.

في الرقعة الصغيرة خلف المدرسة، كنتُ أول من غرستُ أصابعي

في التراب.

لم يكن ذلك مجرد زرع.

كان كأنني أزرع نسخًا مني.

ألفَ آسيا، تحلم بأن تحيل هذا التراب إلى خُضرة.

زرعنا الطماطم، والبصل، والفول، والبامية.

غرسنا الليمون، والبرتقال، ومددنا كروم العنب.

وبعد أسابيع، بدأت الأرض تتحدّث بلغتها القديمة.

امتدّت الأوراق الخضراء، شاهدةً على غدٍ أكثر رحمة.

ثم، واحدةً تلو الأخرى، جاءت النساء.

«كيف نبتت الزروع بهذه السرعة؟»

كنت أضحك وأقول:

«بأيدينا. وأنتم أيضًا... بأيديكن».

كان الأمر يشبه المطر.

صارت الشاحنة تأتي كل شهر، محمّلة بالخُضرة، تفرغ حمولتها وتغادر بصمت،

تترك خلفها أثرًا لا يُمحى.

لكن المفاجأة لم تكن من النساء وحدهن.

بل من الرجال.

في إحدى الأمسيات، اجتمع بعضهم في حوش المدرسة.

كانوا يتحدثون عن تعاونيـة لتعليب التمور، عن مشروع علف، عن أبقارٍ تُكثِر الحليب،

بل حتى عن مصنع جبنة صغير.

كنت أسترق السمع من بعيد.

كان أحمد هناك، في قلب الدائرة، يكتب.

يكتب ككاتب محكمة.

يرسم الخطط مع النشطاء كأنه وُلد في هذه القرية.

وكانت آمنة هناك.

لا أعلم إن كان الأمر يعنيها.

لم تأتِ حتى لرؤية الحديقة خلف المدرسة.

هل جاءت لتراني، وأنا أراقبه؟

آسيا وآمنة: حوار عند شجرة اللّالوب

في ليلةٍ من ليالي الخريف الناعمة، وبعد يومٍ حافل بالدروس، والعناية بالزرع، وحديقة المدرسـة الجديدة، وانتهاء الجمعية الأدبية للبنات، كنتُ أسير عائدةً مع آمنة.

عنـد اقترابنا من شـجرة «اللّالـوب» الكبيرة، قلـت فجأة، كمن يحدّث نفسه:

«آمنة، هل تعتقدين أن البرق يستطيع أن يغيّر البشر؟»

ضحكت وقالت:

«أنتِ أدرى بذلك».

لكنني لم أضحك.

نظرتُ إلى الشجرة، وهمست:

«أحيانًا أشعر أن البرق كان رسالة.

لكنها لم تكن لي وحدي».

«لمن إذًا؟» سألت.

«للجميع».

سكتت قليلًا، ثم تمتمت:

«يقولون إن البرق لا يضرب المكان نفسه مرتين...

لكنني أظن أنه ترك أثره هنا».

رفعتُ رأسي نحو السماء.

لا برق. لا صوت.

لكنني شعرت أن شيئًا ما يتغيّر.

أحيانًا، أرى نفسي كأنني ظلٌّ يمشي إلى جواري.

كأنني شخصٌ آخر يراقبني من بعيد.

كنت أظن أن البرق أنهى قصته.

لكنني لم أكن أعلم أن وميضًا آخر كان ينتظر عند الأفق،
حتى في الليالي التي تبدو ساكنة.
آمنة: ليلة الزفاف
«اللّيـل، ليل، ليـل العديل والزيـن... والليلة العديلـة يا عديلة الله!»
تصاعدت أصوات «السيرة» مع اقتراب موكب العريس.
الرجال يلوّحون بعصيّهم وأيديهم في الهواء،
النساء يزغردن،
والأطفال يركضون في نشوةٍ لا يدركها الكبار.
أما أنا، فجلستُ في الداخل.
لم أكن غاضبة.
لم أكن سعيدة.
كنت فقط... أراقب.
كانت آسيا هناك، في ثوبها الأخضر المطرّز بخيوط الذهب،
تلمع تحت ضوء الفوانيس، كأنها شيء خرج لتوّه من حكاية،
ولا يعرف تمامًا كيف يعود.
صاح صوتٌ من الخارج:
«وصل أهل العريس!»

خمدت أصوات «السيرة» للحظة،
ثم انفجرت الزغاريد، كأنما ريحٌ بُثَّت من جديد في رئتيها.
رأيت أحمد يدخل مع أهله، في زيّه الأبيض الأنيق،
محاطًا برجال القرية وبعض ضيوف الخرطوم.
كان يبتسم نصف ابتسامة،
فرحه مخلوط بشيءٍ لا يُقال،
وينظر إليها كمن يرى حلمًا لا يستطيع لمسه.
جلست آسيا في مقعد العروس،
وبدأ المأذون بتلاوة عقد القِران.
فقال وكيل العروس: «زوجتُك آسيا بنت حاج الطاهر على الصداق المسمّى بينكما».
ونطق أحمد بالقبول.
وتعالت التهاني من كل الجهات.
كنت أراقب المشهد كما لو أنني خارجه،
كأنني لا أنتمي إلى هذا العالم... بعد الآن.
بعد العشاء، بدأ الحفل الغنائي.
جلست آسيا وسط الدائرة، كأجمل نايرة،
ترقص وتخلي قلوب الصبيان تطير.

اشتدّ إيقاع الدلوكة، وارتفعت عقيرة النسوة بالغناء:

«الليلة سار يا عشايا... عديلة ليه؟

شويم شال الجداية... البندورها ليه؟»

لكن الجداية... لم تكن هنا تمامًا.

كانت ترقص، نعم،

لكنَّ في عينيها شيئًا آخر،

كأنها ترقص في زمنٍ غير زمننا،

وفي مكانٍ لا تراه عيوننا.

نظرتُ إلى أحمد.

كان يراقبها،

كأنّه يحاول أن يمسك بلحظةٍ لا يريد لها أن تنفلت.

لكنها كانت تنفلت...

مثل البرق.

وفي السماء السوداء،

لمع البرق من جديد.

وفي تلك اللحظة، التفتُّ نحو المرآة في زاوية الغرفة.

فرأيت آسيا فقط.

لم أرَ نفسي.

البرق... لم يقل كلمته الأخيرة بعد.

أحمد: الطيف الذي لا يبقى

حين أفكّر في آسيا الآن، لا أجد شيئًا ملموسًا.

لا صورة واضحة.

ولا ذكرى دقيقة.

فقط طيف... برقٌ لمع في السماء، ثم اختفى.

أحيانًا، أشعر أنني لم أتزوّج أحدًا.

وأحيانًا أخرى، أظن أنني تزوّجتُ البرق نفسه.

لكن البرق... لا يبقى.

مرّت أسابيع.

عادت القرية إلى هدوئها، كأن شيئًا لم يكن.

النساء إلى أعمالهن.

الرجال إلى الحقول.

لم يعد أحد يتحدث عن البرق.

لم يعد أحد يذكر آسيا.

كأنها كانت حلمًا عابرًا،

تلاشى مع أول خيطٍ للفجر.

إلا أنا.

كنت أبحث عنها في كل مكان.

في المدرسة.

في الحوش.

تحت شجرة «اللّالوب».

في وجوه الناس.

في صوت الريح.

لكن لم يكن هناك شيء.

حتى في الأوراق الرسمية، لم أجد اسمها.

في أحد الأيام، وأنا أمرّ بجوار مكتب المعلمات، توقّفت عند الباب.

رأيت آمنة خلف المكتب، تكتب في دفترها، منهمكة كعادتها.

دخل الفراش يحمل ظرفًا بنيًا مختومًا، وقال وهو يمدّه لها:

«هـذه أوراقـكِ يـا أسـتاذة آسـيا، أتيـتُ بهـا من السـجلات كما أمرتِني».

الكلمة علقت في رأسي.

ليست مجرد اسم،

بل سهم أيقظ شيئًا كان نائمًا في داخلي.

مـدّت آمنة يدها، أخذت الأوراق، قلّبتهـا بسرعة دون اكتراث، ثم قالت:

«شكرًا يا عم حسن».

نظرتُ إليها.

إلى الورقة بين يديها.

إلى الاسم المطبوع بخطٍ واضح:

آسيا الطاهر.

شعرت بشيءٍ باردٍ يهبّ من داخلي،

ريح جافة... كأنها من صحراء بعيدة.

هذا الاسم... كأنني رأيته من قبل.

كأنني أعرفه منذ زمنٍ بعيد.

لكنني لم أفكّر فيه كثيرًا.

أو ربما... لم أرد أن أفكّر فيه كثيرًا.

قالت آمنة، وهي تبتسم دون أن ترفع رأسها:

«نسيت؟

هذا اسمي في السجلات.

لكن في البيت ينادونني آمنة، على اسم جدتي».

رفعتُ نظري إليها مجددًا.

كانت تجلس هناك، بهدوئها المعتاد، تكتب شيئًا في دفترها.

كأن شيئًا لم يكن.

وفي تلك اللحظة، شعرت أنني لا أعرفها.
في الخارج، عند الأفق البعيد،
لمع البرق للحظة.
أغمضتُ عينيّ.
هل كان البرق هناك فعلًا؟
أم أنه كان... دائمًا هنا؟
داخل رأسي؟

بائعة الشاي: ظلال الحرب

في ليلةٍ غارقةٍ في الظلام، جلست رابحة بجانب موقدها المشتعل، تنتظر زبونًا لم يَعُد.

صوتٌ، ليست أكيدة من وجوده فعلًا، ربما صدى ريح بعيدة، أو همسات أشباح، يردد «جلالة» عسكر، سمعتها منهم في أيام خوال، كنّ -رغم البؤس- نضِرات:

«ست الشاي

كُبِّي الشاي

عليك الريدة

قَبلي جاي».

ابتسم قلبها للذِّكرى، لكن ظلّت شفتاها مضمومتَين في حزم.

يدُها تموج بحركاتٍ آلية، تقلب الفحم في الموقد، تنفض عنه الرماد، تصب الماء في الإبريق، تضع الشاي في المصفاة، تفتح وتُغلق علب السكر والنعناع والحبهان، وتتحسّس بضعَ الجنيهات التي أخفتها بين طيّات صدرها.

تحسّ بشيءٍ من الأمان، لكن هاجسًا لا تدري كنهه يسرق ابتسامةً كادت أن تولد بعد عناء على جانب فمها المرتعش.

طقطقة الجمر تتلاشى ببطء.

البخار المتصاعد يلفح وجهها، لكنها ظلّت ضائعةً في إيقاع عملها.

الحرب العبثية علّمتها الصمود؛ أن تصنع الشاي وكأنه يستطيع ملء الفراغات التي تركتها السنوات، والأشخاص الذين اختفوا معها.

كانت الطبليةُ مرساها، عملُها وبيتها، حتى عندما تغيّر العالم من حولها، مثل الرمال المتحرّكة تحت قدميها.

كلُّ يوم، مثل الذي قبله.

تجلس بجانب الطريق المليء بالغبار، يتوهّج الموقد بضياءٍ باهت، يتضاءل تحت قيظ الظهيرة، ويخترق ظلام الليل المتزايد.

تتقاذف بين الخوف والأمل، وشيءٌ ما يوقظ قلبها، لا تدري كنهه، يزلزل كيانها، حتى يأتي زبون، فتعود إليها رباطة جأشها، ولو مؤقّتًا.

هدير السوق يتلاشى، والليل يُسدل ستائره.

كانت تخدم الباعة المتعبين، الجنود القلقين، الأمهات الممسكات بأطفالهن وما تبقّى لهن من متاع... وبعض المتحرّشين الوقحين.

لكن الليلة، الهواء مختلف.

ثقيل. حاملٌ سرًا.

بائعة الشاي: عودة نور الدين

كانـت على وشـك انتهـاء ورديّتهـا المسـائية، عندما أتتهـا الريح البـاردة بصدى خطواتٍ بطيئـة ومتردّدة، كأن أحدهم يختبر الأرض قبل أن يخطو بثقة.

لم ترفع رأسها فورًا.

الإبريق يبرد، الجمر الأخير يذبل.

ثم جاء صوته:

«رابحة».

يدُها تجمّدت.

انزلق الكوب من قبضتها، ساكبًا محتواه الداكن في التراب.

استدارت ببطء.

وكان هناك.

نور الدين.

حبست أنفاسها. تسارعت دقات قلبها، كأنها تحاول الهروب من صدرها.

وقـف عند حافّة ضـوء الموقد، نصفه في الظـل، والنصف الآخر مضاء بتوهّجٍ برتقاليّ باهت.

الهواء بينهما ثقيل، محمّل برائحة الرماد والرطوبة.

وجهـه كان أنحـف مما تتذكّر، عظـام وجنتَيه بـارزة، وعيناه أكثر ظلامًا.

لكنـه كان هو، بوقفته، بانحناءة رأسـه الطفيفة، نور الدين الذي عرفته، قبل أن تأخذه الحرب بعيدًا.

«نور الدين»، همست.

تقدّم خطوةً إلى الأمام. الغبار يدور حول قدميه.

صوته منخفض، ثابت:

«حافظتِ على الطبلية!»

«ما عندي غيرها»، قالت، بصوتٍ متصدّع.

الحرب أخذت كل شيء منها: عائلتَيها، قريتَها، والأهم... نور الدين.

سمعت العديد من الحكايات:

قُتل في المعركة،

أُسر وأُعدم،

ضاع في الصحراء.

لم تصدّق أيًّا منها، لكنها توقفت عن الانتظار منذ زمن.

والآن، ها هو أمامها.

جلس على البمبر القصير، حركاته حذرة، وكأنه يختبر وجوده.

سكبت له الشاي بيدَين مرتجفتَين.

الطقوس المألوفة تثبّتها، بينما عقلها يتسارع بالأفكار.

شرب بصمت.

نظره لم يفارق وجهها.

أرادت أن تسأله ألف سؤال: أين كان، كيف نجا، لماذا بقي بعيدًا؟

لكنهما ظلّا صامتَين.

عندما أنهى كوبه، وقف.

قال بهدوء:

«فتِّك بعافية يا رابحة».

مدّت يدها نحوه غريزيًا.

لكنها توقّفت في منتصف الطريق.

«ماشي وين يا نور الدين ومخلّيني؟»

تردّد.

للحظة، بدا وكأنه سيشرح.

لكنه فقط خطا إلى الوراء.

ثم ابتلعه ظلام الليل.

«رابحة»، قال، صوته الآن بعيد.

«خلي بالك من نفسك».

ثم رحل.

ظلّت جالسةً بلا حراك، طويلًا.

ضوء الموقد يخفت، حتى لم يبقَ سوى الرماد.

الكوب بجانبها، دفءٌ خافت ينبعث منه إلى يدها.

لمست حافته حيث كانت شفتاه، تبحث عن دليلٍ على أنه كان موجودًا حقًا.

غفت في مكانها.

أيقظها أذان الفجر.

حان وقت ورديّة الصباح.

الكوب في مكانه المعتاد.

نظيف. جاف.

محيط الطبلية... لا أثر لخطوات.

حاولت أن تتذكّر نبرة صوته الدقيقة، ملمس وجهه في ضوء النار.

لكن الذكريات كانت غائمة،

مثل حلمٍ يتلاشى عند الاستيقاظ.

طوال اليوم، عملت كعادتها.

تُقدِّم الشاي بأيدٍ ثابتة.

لكن في أعماق ذهنها، تساءلت:

هل عاد نور الدين حقًّا، أم أن قلبها اختلقه للمرة الأخيرة؟

استمرّت الحرب اللعينة.

البلدة تصبح فارغةً أكثر، مع كل يومٍ يمر.

لكن طبلية الشاي بقيت.

وظلّت رابحة تصبّ الشاي،

موقدُها ضوءٌ خافت في الظلام،

تنتظر... ما قد تحمله الليالي القادمة.

(الحادثة الغامضة لاختفاء زيت الكركار)

إذا أردت أن ترى جمال فاطمة في البيت، فانظر إلى محمد في السوق. هكذا كان أهلنا قرب منحنى النيل العظيم في أبي حمد يقولون، وكأنهم بذلك يعلّموننا فنون الجمال والحياء معًا. لكن إن لم يعجبك هذا النهج، فما عليك إلا انتظار العيد، حين تُفتح أبواب المنازل على مصاريعها، ويتأنق الجميع لاستقبال الزوار وكأنهم ورود تفتحت بعد طول انتظار.

ولكن العيد هذا العام كان مختلفًا تمامًا.

محمد، صديقي العزيز، كان أسطورة حية في القرية. إذا كنت قد رأيت أندريه العملاق على شاشة التلفزيون، فمحمد كان النسخة السودانية منه، بوسامة تضاهي جورج كلوني، وبأكتاف تتسع لحمل نصف القرية. ومع ذلك، كان يُلقب بـ«العملاق اللطيف»؛ فطيبة قلبه كانت تضاهي قوته الجسدية. في حولية الشيخ حسنين، مريد الشيخ أحمد البدوي، كان محمد يقلب الثور المذبوح بيد واحدة كأنه قرص هامبرغر، وكان هو البطل الذي يُستدعى إذا غرز حمار في الطين أو غاص لوري في رمال الصحراء. بل شوهد أكثر من مرة يجر المحراث في الحقول لمن لا يمتلكون الثيران.

أما أخواته الثلاث، فكنّ أجمل زهرات الحقل. أهل القرية كانوا يسمونهن «البلابل»، ليس فقط لجمالهن، بل أيضًا لعفويتهن ورشاقتهن، وإشارة إلى الفرقة الغنائية الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه. كنّ خليطًا من الجمال القمحي والعيون الخضراء التي تنبئ عن أصل تركي قديم، لكن أجمل ما فيهن أنهن لم يعلمن كم هن جميلات.

في ليلة الوقفة، اجتهدت البلابل ككل نساء القرية في الاستعداد للعيد. أزلن الغبار عن الجدران، كنسن الأرضيات، رششن الحيشان بالماء حتى صار ملمسها كالحرير. صنعن الكعك الناعم بعناية، كأنهن ينسجن ذهبًا، وحضرن زيت الكركار السحري من زيت السمسم ودهن الخراف والصمغ العربي، ليُستخدم في تسريح شعورهن الطويلة ودهن بشرتهن المخملية استعدادًا لصباح العيد. لكن، وسط هذا النشاط المحموم، كان من الطبيعي أن تنسى الكبرى أن تغلي الفول المصري للعشاء.

في صباح العيد، أشرقت البلابل على العالم بفرحة غامرة. ارتدين أثوابهن المطرزة، وأخرجن قارورة زيت الكركار ليمسحن به خصلات شعورهن... لكن الصدمة كانت بانتظارهن.

القارورة كانت فارغة تمامًا.

وأكثر من ذلك، صفائح الكعك، التي ملأت القرية برائحتها ليلة البارحة، لم يعد فيها سوى الفتات. كان المشهد أقرب إلى إحدى الجرائم التي يرويها محققو الروايات. أصابهن الذعر، وركضن إلى

غرفة أخيهن محمد، الذي كان ما زال نائمًا بهدوء، وأثر زيت الكركار يسيل من جانبي فمه حول شفتيه الواسعتين اللتين تحملان بقايا السكر الناعم.

نظرن إليه بابتسامة تجمع بين الشفقة والغضب. الكبرى، وهي تحمل القارورة الفارغة، هزت رأسها وقالت:

«محمد دا خلص العيد قبل ما يبدأ».

أما الصغرى، فقد أسرعت نحو الحائط الطيني تخاطب الجيران بصوت نصفه ضحك ونصفه حرج:

«ما عندكم باقي زيت كركار نلحق به العيد؟»

وفي الزاوية، وقفت القارورة الفارغة كأنما تروي قصة لن ينساها أحد.

(فاطمة السمحة)

«يا أم أحمد، دُقي المحلب، فوق توب أحمد،
أحمد غائب في الركايب،
جانا كلب، سنونو صفر،
حلب الناقة في الشنقاقة...»

أغنية قديمة، تتردد على شفاه الأطفال، تهدهدها الرياح كأسرارٍ خافتة، وتنساب عبر نسيم المساء كما لو كانت وعدًا غامضًا. «أحمد قد رحل، جواده حمله إلى حيث لا نراه، ومن بعده أتى كلبٌ ضال، أسنانه صفر كألياف الزعفران اليابسة، فنهش آخر رشفةٍ من ضرع الناقة، ليذر حليبها يتبخر في التراب المحترق تحت وهج الشمس».

لم تكن مجرد كلماتٍ عابرة، بل نبوءةٌ تتحقق، قدرٌ يتجدد كما تتجدد دورات الشمس والقمر، همسٌ خفي يسري في أنساغ الأرض، يعيد رسم المصير في خطوطٍ لا تنمحي.

على ضفاف النيل، في قريتنا العاشقة للنهر، كانت الحياة تنساب ببطءٍ كمن لا يخشى شيئًا. النهر يمنح، والأرض تنجب، والأشجار تُظلِّل، والمطر يأتي في موعده ثم يرحل، تاركًا في الجو عطرًا عالقًا من الطمي والغبار المبلل بالحياة. في أعالي الجبال، ترعى الأغنامُ بمرحٍ،

بينما تتساقط ثمار المانجو الناضجة، تثقب الأرض برحيقها العَطِر. الأطفال الحُفاة يركضون بين الظلال، يتحدون الأشواك والحصى، وكأن الأرض امتدادٌ لأرواحهم، جزءٌ من كينونتهم لا يفصل بينهم وبينه شيء.

لكن حتى أجمل اللوحات مهددةٌ بدورة القدر المتقلبة.

يا أورف!

يا فورتونا!

القدرُ، يا كارل، كالقمر...

يدور، يتغير، يرفع البعض نحو علياء النور، ويسحق آخرين تحت عجلاته، يمحو الأسماء كما تمحو الريح آثار الأقدام على الرمال.

ثم دوى البوق.

كان الصوت أجوفًا، مكتومًا، كأن وحشًا قد استيقظ من أعماق النهر، كأن أنفاسًا قديمة أُطلقت بعد قرون من الاحتباس.

توقف كل شيء.

الرجال تجمدوا في أماكنهم، الكلمات حُبست في الحناجر كأصوات لم يُقدّر لها أن تُقال. الأمهات توقفت أياديهن في الهواء، واحترقت أرغفة الخبز على جمر الأفران، كأن الزمن نفسه قد ارتجف للحظة وانكسر. الأطفال التصقوا بالجدران الطينية، جمودهم يشبه تماثيل تآكلها الخوف.

ثم، خرجوا من الظلال.

المسوخ.

أعينهم جمرًا يتقد، جلودهم تلمع كأنها خرجت توًا من ظلامٍ بلا قمر، أنفاسهم مزيج من البارود والدم القديم. ضحكاتهم رعد، أصواتهم معاول تهدم الصمت. أصابعهم تتلاعب بمقابض البنادق، لم يرفعوها بعد، لكن الرعب وحده كان كافيًا.

ثم أعلنوا القرعة، يا شيرلي! تمامًا كما أقمت الدنيا ولم تقعديها عندما كتبت «اليانصيب».

القرعة.

قهقه أحدهم، صوته أجش كحجر صوّان يجرح الحديد، وقال ساخرًا:

«لتكن عادلة».

وتقدم الشيخ.

كان يحمل الصندوق كما يحمل الرجل كفنه، بخطى يعرف أنها لن تبدل المصير، فهو يعلم، كما نعلم جميعًا، أن الورقة في الداخل ليست سوى ورقة واحدة، خط عليها اسم نعرفه جميعًا.

«فاطمة السمحة».

لم يكن الأمر مفاجئًا. لم يكن هناك ما يدعو للدهشة.

الجميع كان يعلم أنها المختارة.

حتى فاطمة نفسها.

لكنها لم تبكِ. لم تتوسل. لم تنبس بكلمة.

في عينيها لم يكن هناك خوف، ولا رجاء.

كانت تعلم أنها ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة.

وحين تقدمت بخطواتها الواثقة، كانت القرية كلها تراقبها، كما لو أن الأرض كلها حبست أنفاسها. النخيل تموّج بلا ريح، النهر اضطرب كأنه يقاوم قدره، والحقول التي كانت تسبّح بحمد السماء بدت وكأنها انحنت فجأة، كأنها تنتحب.

الأغنية القديمة لم تتوقف.

لكنها لم تعد أغنية أطفال.

كانت نبوءةً تتحقق.

ثم تناوبوا عليها.

المسوخ.

ضجيج أصواتهم غطى أنين الريح. أنفاسهم المسمومة بشبق وحشي محت ما تبقى من الطهر في هذه الأرض. لم يُسمع سوى صرخاتٍ مكتومة، لم نعد نعرف أن كانت صرخاتها أم صرخاتنا.

النيل، الذي طالما احتضننا، أشاح بوجهه.

السماء، التي اعتدنا زرقتها، اشتعلت بلون الدم.

سعف النخيل الذي كان يسبّح، يبس كالعراجين التي أهلكها القحط.

وعندما انتهى كل شيء...

كانت فاطمة هناك، جاثمة، كتمثال محطم،

وكانت المسوخ تغادر، تتثاءب، تمسح الدم عن كعوب البنادق كأن الأمر لم يكن سوى نزوة عابرة.

لكنهم سيعودون.

بالطبع سيعودون.

ألم يعودوا في كل مرة؟

المراقبون الأغراب وقفوا هناك، بعيدين. لم يتدخلوا، لم ينبسوا بكلمة، لم يحركوا ساكنًا.

ثم، كما جاءوا، رحلوا.

رحلوا بلا أثر...

إلا الدمار.

في الليالي التالية، لم يبقَ في القرية سوى شبحها.

لم تعد فاطمة جسدًا.

صارت أغنية.

همسًا باكيًا في ليالي الخوف.

وفي المنافي البعيدة، كانت الجدات تهمسن للأطفال:

«فاطمة كانت أحلى واحدة».

لكن الأغنية لم تنتهِ.

ستتكرر.

في زمن آخر، في قرية أخرى، باسم مختلف.

ستُعاد القرعة، وسيُختار اسم جديد.

فتاة أخرى ستقف في ذات المكان، تنتظر ذات المصير.

لأن القرعة...

ليست سوى دوران آخر في عجلة القدر.

وحتى يدرك أهل القرية أن هذا سيظل يتكرر،

لن يكون هناك خلاص.

(حكومة الصف السادس)

في فناء المدرسة الواسع، حيث وقفت شجرة النيم العتيقة شاهدة صامتة، تمد جذورها العميقة وتبسط ظلها الوارف، راقب الأستاذ عوض الكريم تلاميذه وهم يندفعون نحو البوابة مع رنين جرس الفُسحة الطاغي على ضجيج الضحكات وهمس النعال المتسارع على الأرض العطشى.

خلف السور، وتحت ظلال ما تبقّى من الضحى، جلست النسوة على «بنابر» خشبية مهترئة، كل واحدة خلف طبلية متواضعة تزهو بما جاد به السوق. كان في كل طبقٍ معروضٍ فنٌّ صامت: ثمرات الدوم اللامعة، «القنقليز» المغمور في إكسيرٍ سكري، اللقيمات التي احتضنتها قطرات الزيت للتو، التمر المشبع بالعسل، وقطع الغريبة الذهبية التي تحمل في مذاقها سرَّ وصفاتٍ تناقلتها الأجيال.

لكن نجمة العرض الحقيقي كانت سندوتشات الفول والطعمية، تتوسط المشهد كأنها ملكة الحفل، تحف بها أكوام «الدليب» المتراصة، وشرائح «التبش» المنثورة بالفلفل الحار، وكأنها إعلان رسمي عن اقتراب الفوضى العارمة التي على وشك أن تكتسح المكان.

وسط الهواء المغبر وتبادل الصفقات الحماسية، حيث يقايض

الأطفال حفنة من النبق بقطعة طعمية ساخنة، أو يحصلون على رغيفٍ محشوٍّ بسلطة الباذنجان المُبهّرة، تفرّق التلاميذ في أنحاء الساحة؛ بعضهم استلقى على الأرض الخشنة، وآخرون غرقوا في ضجيج الحكايات المتشابكة، بينما كانت كل لقمة تدفئ قلوبهم.

في تلك اللحظة، وبينما كان التلاميذ منشغلين بمتعة الطعام والتفاوض، خطرت للأستاذ عوض الكريم فكرة... أو بالأحرى، أسوأ فكرة في مسيرته التعليمية.

حين أسلمت الفُسحة نفسها إلى وطأة الزمن، وعاد التلاميذ إلى فصولهم، تقدّم الأستاذ إلى مقدمة الفصل، وصفّق بيديه بقوة اخترقت بقايا الضحكات المتناثرة، وأعلن بحماس يكاد يلامس الجنون:

«من اليوم، سنؤسس حكومة للصف السادس!»

ساد صمت مشوب بالذهول، قبل أن ينفجر الصف في ضحكات لم يُعرف إن كانت ساخرة أم مذهولة.

حسن بن عوف، وهو لا يزال يتذوّق بقايا القنقليز في فمه، سأل ببراءة طفولية:

«يعني... سوف نحكم البلد؟»

ضحك الأستاذ عوض الكريم، ضحكة تشبه نبرة الحكواتي، وأجاب:

«لا يا أبنائي، لكنكم ستحكمون هذا الفصل! سنكوّن حكومة، رئيس، وزراء، وحتى برلمان!»

لم يكن يدري أنه قد زرع بذور انقلاب سياسي قبل أذان الظهر.

ولأن الانتخابات الحرة كانت فكرة معقدة للغاية، لجأ التلاميذ إلى طريقة أبسط في الاختيار:

«أطول ولد في الفصل يصبح الرئيس».

وهكذا، صعد آدم بركات -الملقّب بـ«قَرَضة»- إلى سُدّة الحكم، ليس بحنكة سياسية، بل لأنه يملك ميزة بوصةٍ إضافية في الطول. وقف، مسح بقايا الطعمية عن ردائه الكُحلي، وأعلن بصرامة طفل يكتشف السلطة لأول مرة:

«أول قرار لي: فسحة الفطور تزيد عشر دقائق!»

انفجر الفصل في هتافات صاخبة أشبه بعاصفةٍ صيفيةٍ مباغتة، بينما زفر الأستاذ عوض الكريم بعمق، مدركًا أن هذه لم يكن البداية المشرقة التي كان يتوقعها.

أما وزارة المالية، فقد كانت من نصيب بابكر الكباشي، ذلك الفتى الذي اشتهر منذ الصف الأول بمهاراته الفائقة في التهرب من دفع دين الفطور المتراكم لحاجة صفية.

في الصف الأخير، حيث يتجمع مشاغبو الصف، وقف بابكر وأعلن بفخر:

«سوف نفرض ضريبة على طلاب الفصول الأخرى، من الصف الأول إلى الصف الخامس... أما نحن، الحكومة، معفيين من الدفع بطبيعة الحال».

تردد صوت حذر من المقاعد البرلمانية:

«وان رفضوا الدفع؟»

ابتسم بابكر بمكرٍ واثق:

«نرفع عليهم سعر الفول! حاجة صفية بائعة الفول خالتي».

بحلول اليوم التالي، امتلأت الخزينة الوطنية بالنبق الذهبي، التمر المعسل، والقنقليز الأبيض... ثم، كما يتلاشى الندى في وهج الصباح، اختفت هذه الكنوز فجأة. ومع حلول الظهيرة، اختفى بابكر الكباشي معها!

حسن بن عوف، وزير الدفاع، لم يحتمل هذا الانفلات أكثر. قفز وسط الفصل، وصرخ:

«هذه حكومة فاسدة حادت عن مبادئها. لقد حان وقت تغييرها!»

وفي سرعة البرق، شكّل جيشًا من «صغار الضباط» من طلاب الصف الخامس مسلّحين بقذائف ثقيلة، ثمرات الدوم الصلبة التي انهمرت على الرؤوس كالمطارق، بينما أُطلقت حبات النبق الممضوغ كطلقات دقيقة لطّخت القمصان بالألوان الترابية. أما السلاح

السري، فكان قشر الموز المهروس، وُضع بعناية أمام الوزراء، ليشهدوا سقوطهم في مشهد هزلي متكامل.

مع بزوغ فجر اليوم التالي، تصاعدت الأزمة إلى حربٍ مفتوحة.

تحولت ساحة المدرسة إلى ميدان معركة؛ الوزراء يركضون، النواب يتعثرون، والدوم يتساقط من السماء كأنها أمطرت حصى غاضبة.

في خضم هذه الفوضى، عاد الأستاذ عوض الكريم إلى المشهد، صعد فوق طاولة، ولوّح بسبورة صغيرة كُتب عليها بخط عريض:

«أي طالب يضرب زميله... سيكتب ألف مرة: العنف لا يبني الأمم».

سقط الصمت كحجرٍ في بئر، هدأت الطلقات، وسقطت الديمقراطية كما يسقط الطموح في غبار الواقع.

انعقد طابورٌ طارئ؛ وقف الطلاب في صفوفٍ متيبسة، بينما وقف المدير، تحيط به هيئة تدريسية مسلّحة بأغصان النيم التي تحولت إلى سياط. أعلن بصوتٍ صارم لا يقبل الجدل:

«ما هذه الفوضى؟ من تظنون أنفسكم؟ هذه مدرسة وليس مسرح عبثي!»

ثم التفت إلى آدم بركات، الذي بدأ يتراجع ببطء، وقال بحزم:

«أنت مسؤول عن كنس كل الفصول لمدة أسبوعين».

ثم نظر إلى بقية الحكومة وأضاف ببرود:

«وكل واحد فيكم يأتي بولي أمره غدًا. ستكنسون حوش المدرسة لمدة شهر!»

وقبل أن ينهي كلامه، رفع سوط النيم ولوّح به في الهواء، معلنًا:

«وطلبة الصف الخامس والصف السادس... عشرة جلدات لكل واحد!»

ساد السكون.

ثم جاء صوت حسن بن عوف، متأوهًا بعد أول لسعة:

«يعني بدل الحكومة، أضحينا مستعمرة؟»

ضحك الصف السادس ضحكةً مكبوتة... لكنها سرعان ما تبخرت مع صدى السياط.

ذلك اليوم، تعلّم التلاميذ أن الديمقراطية ممتعة... لكنها تنتهي غالبًا بالسياط.

وأن السياسة قد تنتهي بك ممسكًا بمكنسة، تزيل بها غبار الفصول قبل شروق الشمس.

وأن المال، مهما تراكم، دائمًا ما يختفي... سواء داخل الخزينة العامة أو في جيب بابكر الكباشي.

أما الأستاذ عوض الكريم؟

فقـد تم نقله إلى مدرسـة أخرى، وهناك، قرر أن يقتصر تدريسـه عـلى الجغرافيـا والتاريـخ، بعيدًا عن فوضى السياسـة وإثـارة الرأي العام.

وهكـذا، انتهت أول تجربـة ديمقراطية حقيقية في تاريخ المدارس السودانية... لا بصناديق الاقتراع، بل بصوت السياط.

(بين النبضات)

خفـق الضوء الأحمر، كل ومضـةٍ منه كنبض قلـب بعيد، منسيّ، ترددت أصداؤه كذكرى روحٍ ضائعة في العتمة. كان وهجه يتلاشى ببطء مع كل أنين صفارة إنذارٍ، كل موجة ضوء تنحسر وكأنها تنعى زوالها.

في ليلة مبلولة بالمطر، رقصت انعكاسـات النيون على الإسـفلت الزلـق، التقطـت القطرات أشـعة ضـوء متوهجة كجواهـر مبعثرة، صنعت هالةً غريبة حول مدخل المستشفى. عند العتبة، رأيتُ النقالة تنزلق بلا صوت، موكبًا شاحبًا، كطيفٍ يعبر بصمت بين عالمين.

في الداخل، أومضت الشاشـات الخـضراء الخافتة بترددٍ غامض، أرقامها المرتجفة وخطوطها المتعرجة عكست رقصة الحياة المتأرجحة على حافة الأمل والهاوية.

كانت الأنابيب تلتف حول صدره كأغصانٍ يابسـة تحتضن ورقةً تحتضر، تتشـبث بما تبقى من حياة، رغم أن الطبيعة نفسـها تسـحب ببطء أنفاسها الأخيرة. شفتاه متشققتان كأرضٍ عطشى تحت شمس لا تعرف الرحمة، وخيط دمٍ رفيع يتسلّل من أنفه بصمت، خفي لكنه ينطق بثقل الحقيقة.

خرجت الكلمة همسًا بالكاد يلامس الهواء:

- «ماء...»

اقتربت الممرضة، بخطى محسوبة، ووضعت يدها برفق على السرير. بللت قطعة قطن صغيرة ومسحت بها شفتيه، بحنانٍ يشبه الدعاء. لحظات خاطفة من الرأفة، وسط سكونٍ يشبه القدسية التي تسبق الرحيل.

همست:

- «أوامر الطبيب».

وكأنها تخشى أن تُفسد طُهر السكون، ثم اختفت خلف ستارةٍ يكسوها ضوءٌ بارد فلوريّ.

ابتسامة واهية ارتجفت على وجهه وهو يهمس:

- «لا تقلق».

كلمتان ضعيفتان، علقتا في الهواء، بين وعدٍ لا يكتمل ووداعٍ خجول لا يقدر أن يُقال.

اقتربتُ منه أكثر، مدفوعًا بثقل اللحظة.

- «هل تفكر فيه؟»

عقد حاجبيه قليلًا، كأنه ينخل الذاكرة بحثًا عن جواب.

قال:

- «أحيانًا».

ثـم توقف، تنفس تنفسًـا متقطعًـا، وقال بصوت هش، هشاشـة أوراق الخريف تحت أقدام مترددة:

- «بعض الليالي، أخاف أن أغمض عيني... أخاف ألا أستيقظ».

ثم ابتلع ريقه بصعوبة وأردف:

- «وفي ليالٍ أخرى... لا شيء. مجرد ريح تغيّر اتجاهها».

ثم همس، كأنه يقرأ وصيةً لنفسه:

- «لم آخـذ شـيئًا لم يكن لي. ولم أؤذِ أحدًا. فقـط حاولتُ أن أترك الأمور أفضل مما وجدتها».

خيّـم الصمت. صار ملموسًـا، كأنه كائن حـي. همس الأجهزة، وزمن يتسرّب من بين الأسلاك. خطوات بعيدة تتلاشى في الممرات الباردة.

أغمض عينيه للحظة، ثم قال:

- «الإيمان... مثل الغيب».

توقف لحظة، وكأنه يتحدث لنفسه:

- «نظـن أنـه يزيد وينقص... لكن ربما الشـك هـو الذي يتمدد وينكمش».

رفع يده المرتجفة، لامست يدي، كأنها تتحقق من يقين غائب.

قال:

- «كل من يدّعون الورع كاذبون.

لو كان لأحدهم إيمان بحبة خردل، لحرك به الجبال».

أفتر ثغره عن ابتسامة شاحبة، تجمع بين السخرية والحزن:

- «لكني لم أرَ جبلًا يتحرك».

نظر نحو النافذة. حيث التلال تقف في الأفق كما كانت دومًا: صامدة، صامتة.

ثم، بعد صمت طويل:

- «وإن لم تكن هناك عودة؟»

تنهيدة. شهيق متقطع.

- «نكون مجرد ومضة ضوء تبتلعها العتمة... كأنني لم أكن قط».

فتح عينيه ببطء، ونظر إليّ بنظرة بعيدة، كأنه لم يعد هنا.

- «لكنّك هنا. ووالدك كان هنا».

ثم، للحظة، توهّجت عيناه من جديد. قبس أخير من الحياة:

- «وإن استيقظنا؟»

سكت، ثم همس:

- «فالموت مجرد طرفة عين. والزمن لا وجود له».

تنهيدة طويلة. نظرة نحو السقف. ابتسامة بالكاد تُرى:

– «في هذه الحالة... قيامتي أوشكت».

شيءٌ ما لم يكتمل في عينيه.

دمعة وحيدة انحدرت على خده. قبضت أصابعه على يدي برقة، برودة الموت تتسلل ببطء.

قال بهدوء:

– «أنا ذاهب لرؤية جدّتك الآن».

انغلقت جفونه. وساد صمت كثيف.

ثم، فجأة، انقبض جسده. شهقة أخيرة، جافة، كأن روحه قاومت للحظة.

ثم صفير طويل. ثابت.

ثم... لا شيء.

ارتسمت ابتسامة هادئة على وجهه. كأنه وجد جوابًا لم يكن له أن ينطقه.

توقفت النبضات.

رسمت الشاشة خطًا واحدًا. مستقيمًا. بلا عودة.

كان جسده ساكنًا، مسالمًا، كأنما تخلّى عن ظل الشك وارتاح.

في تلك الغرفة المعقّمة، بدا الزمن وكأنه يحبس أنفاسه، صامتًا أمام قدسية اللحظة.

صار حرًا الآن. تحرر من الأنابيب والأسلاك، من التنميل الزاحف، من همسات الأجهزة.

كان الصمت واسعًا، متّسعًا، لا يُقاطع سوى أنفاسي المضطربة.

نظرتُ إلى وجهه، ساكن، نقي، كما لو نُحت من نور، لكنَّ شيئًا من دفء الحياة بقي فيه.

تساءلت بصمت: هل وجد السلام؟ هل رافقته قوته الأخيرة؟

كيف يُرثى رجلٌ عاش دون أن يخاف من الحياة؟

كل الكلمات التي رغبت أن أقولها، علقت في حنجرتي، ذابت في الهمس، كأنها لا تحتمل الصوت.

أفلتُّ يده، ببطء، ودفؤها يتلاشى كما يتلاشى الصيف أمام زحف الشتاء.

استمرت الشاشات ترسم ذبذباتها. ترقّب صامت لرحلة بدأت حيث انتهى كل شيء.

في تلك الغرفة الواسعة، المجرّدة من الزمان، لم يبقَ إلا نبض قلبي، مرافقًا عنيدًا لنهايته.

كان قد رحل.

وكنت أتشبث بأثره، أرغب أن أسلك طريقه، أن أفهم أسراره، أن أراه ثانيةً حيثما مضى.

راودني الأمل للحظة بأنني سأغلق عيني وأراه هناك. لكن الحياة

أمسكت بي بقوة، كما أفلتته برفق.

جلست إلى جواره، بينما الوقت يتجمّد، والساعة لا تتحرك.

دخلت الممرضة. خطواتها ناعمة، كلماتها هامسة:

- «أعزيك».

وضعت يدها على كتفي، بحذر.

أومـأتُ لها، دون تفكير، ثم غـادرت، وتركتني مع صدى كلماته الأخيرة.

ابتسامة غامضة بقيت على وجهه، كأنها تقول: لا تيأس.

وقفـت ببطء، نظرت إليه للمرة الأخيرة، بحثًا عن أي أثر لرؤيته الأخيرة، عن رسالة لم يُكملها.

ثم اتجهت نحو الباب. صوته وهو يُغلق، بدا لي كدقّة ساعة تختم فصلًا أخيرًا.

الممر بدا كأن لا نهاية له، مضاءٌ لكن بارد.

كل خطوة كانت تردد صدى قلبٍ لم يعد ينبض.

اجتزت أبوابًا كثيرة، كل منها يخفي بدايات ونهايات.

صرخـات بعيـدة، وصفارات ممزقـة، تروي قصـص حياةٍ تمضي وتغيب.

عندما فُتحت الأبواب، وجدتُ نفسي في غرفة الانتظار.

وجوه باهتة. عيون تنتظر. أرواح ستنتظر مجددًا.

خرجت إلى الليل.

هواءٌ بارد، كأنه شظايا حقيقةٍ مكسورة.

المطر يهطل. يلتصق بجسدي، كأصابع شبحٍ رحل للتو.

في البعيد، وميض أحمر.

ينبض.

لا يتوقف.

نبضٌ أخير.

ركبتُ سيارتي.

يدي تشدّ على المقود.

المسّاحات تُصارع المطر.

أدرت المفتاح.

المحرّك تأوّه، صوت خافت يشبه وداعه.

انطلقت.

أنوار مبتلّة.

صفارات بعيدة.

لا أعرف تمامًا إلى أين...

أو ربما أعرف.

في ستار المطر الطويل، واصلت.

يرافقني صدى حياته...

وضحكته الأخيرة.

(بت المنى.. ما قلنا ليك)

في حوشٍ فسيح، حيث البيوت الطينية تتلاصق كأنها تتهامس بأسرار لا يفشيها إلا صمت الأزقة، وحيث أشجار النيم العتيقة تفرد ظلالها الوارفة على فيراندات أنهكها الزمن، استلقت الشَّفَة بت حاج حمزة على «عنقريبٍ» ذو حبال متآكلة، تلوّح بمروحة من سعف النخيل، تصفق بها الهواء في محاولةٍ يائسة لصدّ حرٍّ لا يعرف الرحمة.

كان الهواء ساكنًا، إلا من همسات النيم المتراقصة في النسيم، وصوت المروحة وهي تحتك بخشونة بين أصابع الشَّفَة، تصدر أزيزًا خافتًا يتلاشى في وهج القيظ.

مقابلها، تمدّدت بت المنى بت بابكر على عنقريبٍ مماثل، متكاسلة تحت «توب الزراق» الباهت، يخفي تحته جلابية مهترئة، تشهد بصمتٍ على معارك خيضت بلا انتصار. بين الحين والآخر، كانت ترفع يدها وتمسح عرقًا تجمّع على جبينها، ثم تعود إلى وضعها المستسلم.

بحركةٍ رشيقة من مروحتها، أومأت الشَّفَة ودعت بصوتٍ يحمل نغمة النداءات القروية العتيقة:

«يا بت المنى، ما تجي نمشي السوق قبل ما الزحمة تعكّر المزاج؟»

كمن يستفيق من حلمٍ بعيد، رفعت بت المنى رأسها ببطء، تمتص الكلمات قبل أن تردّ بسخريةٍ متأففة:

«شنو؟ نمشي نحفر الساقية؟ يا بت حاج حمزة، مالك دايرة تورطينا في الجروف؟»

أطلقت الشَّفَة زفرة طويلة ورفعت عينيها نحو السماء، وكأنها تستنجد برحمةٍ غيبية، بينما حرّكت المروحة بقوةٍ أكبر، فصدر عنها صوتٌ متقطّع كأنه احتجاجٌ صامت على حرارة الطقس والحديث معًا.

«السوق، يا ولية! قلت السوق! نجيب العيش والخضار قبل ما الشمس تولّع فينا».

ارتسمت على ملامح بت المنى تعابير حزنٍ مفتعل، وأطبقت جفنيها كأنها تحمل همّ الدنيا فوق كتفيها:

«آي، والله، الدكتور قال لي ما أتحرّك كتير... قلبي ضعيف».

بغضبٍ ممزوجٍ باليأس، ضربت الشَّفَة العنقريب بكفّها، فاهتزت الحبال العتيقة تحتها، محاولةً استدعاء منطقٍ غاب عن الحوار:

«قلبك ضعيف؟ قبل شوية كنتِ بتجري ورا الجدادة في الحوش!»

تنحنحت بت المنى، ومرّرت إصبعها على أذنها بلا اكتراث، كمن يلهي نفسه عن مواجهة الحقيقة، ثم أمالت رأسها قليلًا كأنها تصغي إلى شيءٍ بعيد:

«قلتي شنو؟ عايزاني أشتري جدادة؟!»

وضعت الشَّـفَة يدها عـلى جبينها في يأس، وكأنهـا تود أن تطرق رأسـها بالحائط، ثم مسـحت جبينها بطـرف مروحتها وكأنها تجفّف عرقًا لم يكن سببه الحرّ وحده.

«جدادة شنو يا زولة؟ قلت لك بصل وطماطم وعيش!»

وكأنها تلقت صاعقة، شهقت بت المنى وضربت صدرها بتمثيلٍ درامـي بارع، ثم مالـت إلى الخلف، مسـتندةً عـلى العنقريب وكأنها أوشكت على الإغماء:

«الديـش؟! نحـن في العمر دا وعايزانا نخـش الديش؟ لا، لا، يا بت حاج حمزة، ما بندخل في المتاهات دي!»

بـإصرار، لوّحت الشَّـفَة بمروحتها بعنف، فـكادت الرياح التي صنعتهـا أن تطيـح بطرحة بت المنـى المرتخية، وكأنها تحـاول أن تبعد ليس فقط حرارة الجو، بل أيضًا سخافة الحديث المتفاقمة:

«عيشك! رغيفك! الخبز يا زولة!»

عقـدت بت المنـى يديها في حجرها، وأمالت رأسـها بوقار، كأنما أُوحي إليها بحكمةٍ عظيمة، ثم حرّكت يدها ببطء كما لو أنها تسـطّر على الهواء كلامًا مقدّسًا:

«آي، كنـت عارفـة... كنت حاسـة إنـك دايرة تخليني خدامة، عايزاني أخبز ليك!»

شهقت الشَّفَة ورفعت يديها إلى السماء قبل أن تسقطهما باستسلامٍ مهيب، ثم نظرت إلى بت المنى وكأنها تقيّم ما إذا كان هذا الموقف يستحق مزيدًا من الجهد، أو أنه مجرد خسارة معركة في حربٍ طويلة الأمد.

«يا بت المنى، إنتِ ما بتسمعي؟!»

ابتسمت بت المنى بمكرٍ بريء وهي تعدّل ثوبها ببطء، ثم شبكت يديها وراء رأسها في ارتياح المنتصر:

«والله بسمع، لكن مرات... ما بحب أفهم!»

نظرت إليها الشَّفَة طويلًا، أخذت نفسًا عميقًا، ثم وضعت مروحتها جانبًا. ألقت ببصرها إلى الدجاجة التي كانت «تقدل» في الحوش، وكأنها تستمع إلى الحوار بأذنيها الصغيرتين، بل ربما تفهمه أكثر من صاحبتها.

ثم، وبنبرةٍ تحمل نصف تهديد ونصف استسلام، قالت:

«خلاص، كفاية عليكِ اليوم... لكن باكر، ما عندك مهرب».

استندت بت المنى إلى العنقريب براحة المنتصر، وابتسمت ابتسامةً ملغّزة، قبل أن تهمس لنفسها، بينما تلعب بأطراف طرحتها في لا مبالاة محسوبة:

«باكر؟ يا في البعير، يا في الأمير، يا في العبد الفقير!»

(ثلاث طلقات)

خنـق الحصار المدينة كقبضة حديدية، وانتزع الأنفاس من أزقتها المتربة بوحشـية. التفّ دخان المدافع الكثيف حول البيوت المتراصة كطيـفٍ ثقيـلٍ كالكابـوس، بينما ابتلـع الليل آخر خيـوط الضوء بلا رحمـة، تاركًا السـمع وحـده شـاهدًا على العتمـة الموحشـة، قصفٌ متقطـع يهـزّ الأرض بعنف بين الحـين والآخر، نقيق ضفـادع يتردد مـن الـبرك الموحلة كصرخات خفيـة، وعواء كلاب ضالـة يتردّد في الأرجاء كصدى للخراب.

جلـس محمـود على الأرض الباردة، رأسـه بين يديـه، يراقب ابنه المحمـوم بعينـين مثقلتـين بالقلـق. كان الصبـي ممـددًا عـلى البلاط المتشـقق، جسده الصغير يرتعش في نوبات متتالية، وأصابعه تتشبث بـذراع أمه كأنهـا طوق نجـاة. عظامه بـارزة تحت بشرته الشـاحبة، والعرق يتصبب من جبينه كأنه يذوب، نقطةً نقطة.

محمود، الطبيب الذي ظلّ يداوي الآخرين طوال سـنواته العشر الأخـيرة، جلـس الآن في ركن من المشـفى كجريح بـلا أدوات، بلا دواء، بـلا معنى. في الخـارج، توقّف كل شيء. في الداخل، كل شيء يتهاوى.

قبـل أيام، انقضّ كلب مسـعور على الصبي. لم يكـن أحد ليردّه. قصفـت العيادات، تبخّـرت الأدويـة، توقفت الكهربـاء، وتعفّنت اللقاحات في ثلاجاتها المهجورة. الرعب يسـير على قدمين، والوقت ينقضّ مثل سكين بطيئة.

كان محمـود يراقـب نادية زوجته، زميلته في كليـة الطب، ورفيقة دربه الطويل، وهي تمسح على رأس الطفل وتتمتم بأدعية لا صوت لها. لم تعد تتكلم كثيرًا، ولم تعد تبكي. فقط تمسح. فقط تبقى.

كل شيء فيه كان يهتز... ما عدا يديه.

كان يحتفظ بمسدّس صغير منذ أيام الفوضى الأولى. لم يكن يحمل رخصة، ولا نية. لكنه الآن يجلس على حافة ما لا يُسمّى، والمسدّس في الدرج القريب، ساكن كقطعة قَدَر لا يريد أحد أن يراها.

مرّت أمامه كل الصور، أول يوم لهما في المستشفى، ولادة الصغير، لعبـه مـع أقرانـه، النـزوح الأول، الحصـار، الوجوه التـي اختفت، الأصوات التي انطفأت، النداءات التي لم تُجب.

الآن، كل ما تبقّى: جسـدٌ صغير يحتضر، وامرأة تحاول أن تصمد لأجلهما.

كان محمود يهمس في داخله:

«هل أتركه يتعذّب؟ هل أتركها ترى موته؟ هل أترك نفسي أُدفن حيًّا وأنا أسمع حشرجته؟»

ثم..

شقّت طقطقة الرصاص ظلام الصمت.

طلقتان متتاليتان.

فراغ مشوب بالترقّب.

ثم الثالثة.

ساد سكون كثيف. الهواء نفسه توقّف، كأن المدينة قررت أن تُغلق عينيها أخيرًا.

وفي الخارج، صمت لا يُؤبه له، خطوات بعيدة، همسات مبهمة، ربما ظلّان يمرّان أمام النافذة المكسورة.

ومع اقتراب الفجر، بدأ الضوء يتسلل ببطء من بين ثقوب النوافذ، خافتًا، كأنه يتلمّس طريقه في حذر.

عند الزاوية، ما زال الطفل نائمًا، وجهه أقل توترًا، أنفاسه أكثر هدوءًا.

نادية تضع يدها على جبينه، وتنظر إلى محمود بصمت لا يحتاج إلى كلمات.

لم يخرج صوت.

لم يتحرك أحد.

لكن شيئًا ما تغيّر.

مرّت لحظات طويلة...

ثم تحرّك صدر الطفل مرة أخرى، شهيق هادئ، ثم زفير مطمئن.

رفّت عيناه، ثم عاد إلى النوم.

في مـكانٍ ما من المدينة، ذاب الصـدى الأخير للطلقات في ضوء الصباح.

أشرقت الشمس أخيرًا على الحي المحاصر،

وعلى النافذة الصغيرة،

كانت هناك قطعة قماش معلّقة،

تتحرك ببطء في الريح،

كأنها راية نجاة لم يُعلنها أحد.

(الدُّوبَاي)

على أطراف السهل، حيث يتكسر ظلُّ الجبل على الأرض المعشوشبة بنعومة، كان الحاج علي ود التاي يقود قطيعه نحو المراعي التي خلقها الله، حاملًا الناي في جيبه كأنّه ضلعٌ زائد لا ينفصل عنه.

لم يكن حاج عليٌّ من المتعلمين، شأنه شأن الكثيرين من أبناء جيله. لكنه كان يحمل الدوبيت في قلبه كأنما وُلِد معه، ويؤلفه أحيانًا بسلاسة كما تتنفس الأرض بعد مطرٍ خفيف يعيد لها الحياة.

يُخرج نأيه المصنوع من قصب الذرة عندما يصعد التل، يمسحه بعناية بطرف جلبابه الأبيض، ثم يختبر صوته بنفخة خفيفة قبل أن يردد قول الحارلود:

«الشم خوّخت بردَنْ ليالي الحرّة

والبرّاق برق، من منّا جاب القِرّة

شوف عيني الصقير بجناحو كفّت الفرّة

تلقاها أم خدود الليلة مرقت برّة».

في وضح النهار، كان يهمس للأغنام كما لو أنها بعض سلالته، يبادلها الهمس بحنان أبوي. وفي الليل، حين يصبح النسيم لطيفًا ومنعشًا، «يدوّبِي» للنجوم كما لو كان يناجيها:

«غاب نجم النطح والحر علينا اشتدّا
صيفنا وقصر ليلو ونهارو امتدّا
نظرة المنو للقانون بقيت أتحدّى
فتحت عندي منطقة الغني الانسدّا».

كان الرعاة الآخرون يقفون بعيدًا يضحكون، يقولون:

«ود التاي عايش في عالم تاني».

ولكـن الأغنـام كانت تهـدأ تمامًـا حين يصـدح صوتـه العذب، والكلب يجلس صامتًا دون نباح إذا بدأ يعزف.

أحيانًـا كان يمـضي أيامًـا طويلـة باحثًـا عـن العشـب الأخضر، وأحيانًا يعود كل مسـاء والضروع ممتلئة بالحليب الطازج. كان أهل القرية يعرفون موعد قدومه من فرقعة السـوط الطويل المصنوع من خرقٍ قديمة، والذي كان يُحدث دويًّا يشبه صوت الرعد البعيد.

كانـت الماعـز تعرف بيت أصحابهـا من تلقاء نفسـها، فتعود إليه بسرعة، بينما يتركها علي مبتسمًا، كأنه يودّع صديقًا عزيزًا.

كانت ذاكرته تشبه التراب والنار، يحمل فيها قصصًا لم تُحكَ بعد. قالـوا إن زوجتـه ماتت في عـام الجفاف، ومنذ ذلـك الحين لم يدخل سوق القرية إلا نادرًا، لشراء حاجيات بسيطة كملحٍ أو زاد.

ذات مرة، جاء طفل صغير من أبناء المزارعين وسأله ببراءة:

«يا عم علي، إنت بتدوّبِي للغنم ليه؟»

ابتسم علي وقال برفق:

«الغنم ما بتنافق يا وليدي... ولو كرهت كلامك، بتقلب وشها وتمشي».

ثم أنشد بصوت مليء بالتجربة:

«الناس في العروض لا تقيسها بتِبْيانا

لا يغرك لباسهم والعروض عريانة

ديل حراس رِزِق متل التكني أمانة

زي إبل الرحيل شايلة السُقى وعطشانة».

في عامه السبعين، بدأت صحته تتدهور ببطء. جاءه شيخ الخلوة يومًا وقال له بجدية:

«تعال البلد، في شفخانة وناس ودواء».

فرد علي بتنهيدة:

«الله المعافي. كان عندي باقي عمر بعيشه».

وفي اليوم الذي مات فيه، توقّفت الأغنام عن الرعي فجأة، وجلس الكلب عند قدميه صامتًا، لم ينبح، لم يتحرك، كأنه يودعه بصمت مؤلم.

حين دفنوه، لم يكن له بواكي، لكن الريح كانت تُعيد صوته في شعاب الجبل، والأطفال يرددون ما حفظوه منه على الشوارع الترابية.

ثم تمر السنوات بهدوء... وينسى الناس سيرته، كما يفعلون دائمًا مع كل شيء.

(يا فرحة ما تمت)

في زمـنٍ كانت الحكايات تُروى فيـه «دوبيتًا»، لا تُكتب، وكانت الألحان تفيض بين الناس كمياه النيل الرقراقة في عذوبتها، اجتمعت القلـوب على إيقاعات الطنبور التي تدغدغ المشـاعر كنسـيمٍ لطيف يمرّ عبر دفء الليالي القمراء.

في ذلـك الزمـن، كانـت الصداقـة تتجـاوز حـدود الشاشـات الإلكترونيـة البـاردة إلى لمسـةٍ حانية تمسـح الدموع، وصـوتٍ دافئ يشارك في الحزن ويُهنّئ في الأفراح.

كان الزمن ينساب كخطوات النخيل الباسقة التي تتحدّى قحط الأرض، ويتمايـل مع إيقـاع الطنبور الذي يـردّد حكايات الأمهات والأجـداد، عن شـجاعة الفتيان وزهو جمال الفتيـات، في لوحةٍ تملأ القلب بالأمل والحنين إلى أيامٍ مضت.

هنـاك، عنـد منحنـى النيل العظيـم، في قريـةٍ صغـيرة لا يُحدّدها الزمن ولا تُغيبها الخرائط، وُلد كل شيء بسـيطًا وكبيرًا في آنٍ واحد: الخصومات الصغيرة، الأحلام الكبيرة، والحكايات التي لا تنتهي.

دعـوتُ زميلي مـن جامعة الخرطوم ليقضي أسـبوعًا معي في هذه البيئة الريفية الفريدة.

لم يكن يعرف أن الحياة هنا غير ما يرويه الناس في الخرطوم، وهم يحتسون شاي المغرب الثقيل الممزوج بالحليب، ويضحكون على حكايات أهلنا الرباطاب وردودهم الساخرة.

كنتُ أظن أنني أعرف كل تفاصيل قريتنا، حكاياتها الممتدة مثل ظلال النخيل، مواسم حصادها التي تحمل طعم العرق المشترك، ومآسيها الصغيرة التي تُطوى سريعًا لتُصبح طرفة تُروى.

لكنني اكتشفت حينها أن القرية، كالنيل الذي يعانقها، تخبئ في أعماقها أسرارًا لا يدرك مداها، وقصصًا لا يُطفئها ضوء الشمس ولا يغرقها ظلام الليل.

عرس عثمان حمد النور، أو بالأحرى «العرس الذي لم يكن»، بين لي أن هذه القرية تخبئ في جوفها ما يعجز الزمن عن كشفه.

قضى ثلاث سنوات في صحراء لا نهاية لها، حيث الإبل ترعى في هدوءٍ يشبه الموت، والشمس تتسلّل إلى جلده حتى تصير جزءًا منه.

كان يعدّ الريالات كل ليلة بيدٍ متعرّقة، يعيد حسابها مرارًا، كأنها ستنقص إن لم يمسكها جيدًا.

في أحد الأيام، أتاه زميلٌ عائدٌ من البلد بصورةٍ معدّلة بعناية، بفرشاة فنان بارع.

رآها. فتاة بعينين لوزيتين، بشرة ناعمة، وابتسامة خفيفة تخفي نصف سرّ.

لم يكن هناك مجال للتردّد.

«أكملوا الخطبة، وخططوا للزواج بعد ثلاثة أشهر».

آمنة، وما أدراك ما آمنة؟

لم تكن كأي فتاة في القرية؛ كانت معلّمة المدرسة الابتدائية، تقف كل صباح في الفصل حاملة القلم في يدها وكأنها تحمل سلاحًا، وفي قلبها وطنٌ من الأحلام الصغيرة التي تتفتح مع كل يومٍ دراسي جديد.

قضت سنوات عمرها بين دفاتر التلاميذ التي تملؤها بخطوطٍ حمراء وزرقاء، وأحلام الأمهات التي تهمس لها كل صباح بأمنياتهنّ لأطفالهنّ.

كانت تعلّم الأطفال كيف يرسمون الحروف على الورق، وكيف ينطقون كلماتٍ تتناسق مع المشاهد الصوتية للقرية، عن طه القرشي، ومريم الشجاعة، والدجاجة الصغيرة الحمراء، وزيدان الكسلان، تلك القصص التي يحكيها الصغار لأهل القرية في ساعات المساء الهادئة.

مع الأيام، صارت في أعين الناس رمزًا للتضحية والصبر، يرونها كالصخرة التي لا تنحني أمام أمواج الحياة، لكنها في أعماقها كانت تحمل أمنيةً صامتة، كحلمٍ دفين في قلب الليل.

مرّت السنوات التي يُقال عنها إنها «سن الزواج»، ومرّت كأنها ريحٌ صيفية حارّة، لكنها لم تعبأ.

حتى جاء عثمان برسالته، فأنعش في قلبها ما ظنّته مات منذ زمن بعيد.

في تلك الليلة، فتحت «سحّارة» أمها الأثاث القديم الذي كانت تتردد في فتحه، وأخرجت منه ثوبًا أحمر مطويًا بعناية، كأنه كان ينتظرها منذ زمن بعيد، كذكرى باقية من حبٍّ منسي.

ضغطت عليه برفق بين يديها، تتلمّس نعومته وتفكّر في الوعود التي يحملها.

بعض الأثواب تحفظ الوعود. وبعضها تحفظ الخذلان.

جاء العُرس كما تأتي الأفراح دائمًا: بطيئًا في انتظاره، مفاجئًا في حدوثه.

انطلق اللوري يشقّ الطريق كقصيدةٍ تروي حكايات القرى العتيقة، يهتزّ تحت وطأة حمولته المتنوعة، الرجال بجلابيبهم البيضاء الناصعة، والنساء بثيابهنّ المزركشة بألوان قوس قزح، والأطفال بضحكاتهم البريئة التي تملأ الفضاء فرحًا.

الريح اللطيفة تحمل عبق الحقول المليئة بالقمح واللوبيا والبرسيم، ورائحة النخيل العطرة التي تلامس الروح.

على جانبي الطريق، كانت الشمس تغمس أشعتها الدافئة في مياه النيل الهادئة، ترسم لوحةً بديعة من الذهب المشرب بالعقيق، تتلألأ كأنها كنز من الأحجار الكريمة.

في الدار، كان المأذون يجلس تحت شـجرة السنط، يراجع أوراقه، ويتبادل النكات مع الشيوخ.

النساء يزغردن، والفتيات يغنين بحماس:

«أم العروس، جينا ليكي، جبنا العريس، جينا نبارك ليكي».

ثم ظهرت آمنة.

ثوبها الأحمر. شالها الذهبي. خطواتها الثابتة.

عثمان تجمّد. عيناه تجولان، تبحثان عن شيء غير موجود.

ثم قال، بصوتٍ خافت، كمن يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب الحشد:

«هذه ليست هي».

الصمت سيطر كالغبار الثقيل.

المأذون رفع رأسه ببطء، والهواء تجمّد كأن الزمن توقّف.

حتى النيل القريب، بمياهه المتدفقة، بدا وكأنه جمد مكانه للحظةٍ أبدية.

عمـه اقـترب بخطـوات مشـحونة، وصوته مشـدود كوتـرٍ على وشك الانفجار:

«ماذا تقول؟»

بلـع عثمان ريقه بصعوبة، محاولًا العثـور على الكلمات التي بدت ثقيلة كالجبال:

«الصورة... كانت مختلفة».

آمنة لم تنبس ببنت شفة.

رفعت عينيها للحظة، ثم سقطت على الأرض جاثية، كأن قدميها خانتاها تمامًا.

وضعت راحتيها على وجهها في صمتٍ صارخ. لم تبكِ. لم تتحرّك.

أمهـا، تقف خلفها، أغمضت عينيها بشـدّة، كأنهـا تحاول ابتلاع مرارة عالقة في حلقها.

ثم جاء الصوت من الخلف هادئًا ثابتًا:

«أنا بعرسها».

تأخرت النظرات في الالتفات.

حامـد، رجـل نحيـل، أسـمر، يـداه خشـنتان مـن الأرض التي يفلحها، لكن صوته لم يهتز:

«لو عثمان لا يريدها... فأنا أحملها على أهداب العين».

الزغاريد عادت. الطنبور شدا من جديد.

لكـن عثـمان بقي واقفًا كأنـه محاصرٌ بعاصفةٍ تقصـف بأعماقه، لا يراها أحد سوى قلبه المتأجّج.

لم يكن للحفل أن يكتمل بدون طقس الجلد.

الفتيـة مـن القريتـين خلعوا جلابيبهـم، مصطفّين أمـام العريس الجديد بتحدٍّ وجرأة.

ثـم، وفي لحظة اندفاعٍ غير متوقعة، انبثق عثمان من الظلال، نازعًا جلبابـه بقـوة، منضـمًا إلى الصف المتوثّـب للجلد وكأنـه يندفع نحو مصيره المحتوم.

السوط الأول سقط على ظهره كالبرق.

ثم الثاني كالرعد.

والثالث يتردّد صداه في أرجاء كيانه.

لم يتأوّه، بل ظلّ صامدًا كجبلٍ يواجه العاصفة، وكأنه يسـدّد دينًا غامضًا أثقل كاهله منذ الأزل.

وحـين انتهـى، التفت إلى حامد بعينين تشـتعلان بالعـزم، ثم مدّ يده بقوة، وعانقه وسـط هدير تهليل الرجـال وصياح الفتيان الذين اهتزّت أرواحهم لهذا المشهد المهيب.

في طريق العودة، كان القمر مكتملًا على غير العادة، والنيل يلمع تحت ضوئه، كقصيدةٍ تُكتب كل ليلة من جديد.

زميلي، الذي ظلّ صامتًا طوال الوقت، التفت إليّ أخيرًا، وسأل:

«هل يحدث مثل هذا كثيرًا هنا؟»

ضحكـت، كـما يضحك مـن يعرف الحقيقـة لكنه لا يجـد طريقة لقولها، وقلت:

«هنـا، يا صديقي، كل مأسـاةٍ تُولـد حكايـة، وكل حكايةٍ تنتهي بالفرح».

(الكارّو)

عندمـا فتحت عيني، تبخّـر أثر الحصان والعربـة التي يجرّها، في صبر، تمامًا كما تبخّرت كل سنوات وعيي.

صدر مني أنين ثور مذبوح، صوت زفراتي يمزّق الهواء اللاهب، يتطاير مشبعًا بالارتباك والوجع.

رأسي كأن مطرقـة ثقيلـة تهـوي عليه بـلا رحمة، كل خفقـة تردّد صـدى الارتطـام العنيف الـذي قذفني من عربتـي، وجهي يلتصق بالحصى المسنّن، والأرض تقتصّ مني بجمودها القاسي.

لكـن الألم ليـس مجرد وجـع عظام، إنه ثقل كاسـح، شيء يطحن جمجمتي من الداخل.

بصقتُ، فتطاير الغبار كذرات الطحين العالق، بلساني.

الـدم الدافئ، كثيف ومالـح، يتسرّب ببطء من فمي، يختلط بكل نفسٍ متقطع يخرج من صدري الذي بات كجرة فخارٍ متشـققة، على وشك أن تتحطّم عند أول حركة خاطئة.

بصعوبة، دفعتُ نفسي للنهوض.

الأرض تموج تحت قدمي، تتمايل كسـفينة صغيرة وسـط تيارات النيل المضطربة.

قبضتـاي، الخشـنتان المحترقتان بحرّ الشـمس، تطرقـان الطريق المتشقق، بحثًا عن ثبات، كل خطوة نداءٌ صامت للنجاة.

فوقي، الشـمس تشـتعل كجحيـمٍ أبيض، وهجها يخـترق جفنيّ نصف المغلقَين، يحفر جمجمتي بنبضاته اللاهبة.

أحاول التقاط شـظايا ذاكرتي. السوق، ضجيجه، العربة المحمّلة حتـى أطرافهـا بالفول والبصل المشـدود بحبالٍ متينـة، وقع الحوافر يضبط إيقاع الرحلة... ثم الظلام.

والآن، لا حصان، لا عربة، لا سـوق. فقط أنا، مبعثر على امتداد طريقٍ خالٍ، كجدي نافق تُرك لينكمش تحت الشمس.

أجـبر نفـسي عـلى الوقـوف، كل حركـة معركـة ضـد الركبتَـين المرتعشتَين والجمجمة المتقدة بالألم.

الـدم ينسـاب دافئًا على صدغـي، أصابعي تتلمّسـه بحذر، تعود ملطّخة بالأحمر القاني، دليلٌ صامت أن شـيئًا ما أو أحدهم ضربني. لكن... من؟ ولماذا؟

أصـوات بعيـدة تتهـادى عبر الهـواء المشـبع بالغبـار، ضحكاتٌ متناثرة، جافّة، كأنها تسخر من تعثّري.

أخطـو خطـوة مـترددة، ثم أخـرى. العظـام تحتجّ، وكأنهـا تعود لرجلٍ عجوز أنهكته السـنون. لكنني أتابع، أشـعر بغريزةٍ خاملة أن السوق ليس بعيدًا.

الغبـار يتراقص حول قدمي، يتغلغل في ملابـسي المبلّلة بالعرق، يلتصـق بجلـدي، يمـلأ حلقي كلّـما دفعتنـي قدماي للأمام وسـط الطريق المتموّج تحت شمس الظهيرة التي لا ترحم.

ثم، فجأة، يتفجّر السـوق أمامي، عاصفة من الألوان الصارخة، والأصوات الصاخبة، والأجساد التي تتحرّك بحمّى البيع والشراء.

نـداءات الباعة، المسـاومات الحادة، نغمات الحيـاة اليومية تختلط برائحـة الخبز السـاخن، عبق ثمار المانجو الناضجـة، وعرق الرجال الممتزج برائحة ماء النيل الذي لا يغيب.

وهناك عربة الكارّو، تقف في مكانها المعتاد، وكأن شيئًا لم يحدث. أكياس الفول ما زالت مكدّسة، وحُزم البصل لم تُمس.

والحصان؟ هادئ، يمضغ التبن بغير اكتراث، وكأنه ربُّ السوق لا خادمه.

يدور رأسي، يضجّ بالألم، حتى يشير إليّ أحدهم بصوتٍ هازئ:

«يا البلولة! مالك ماشي زي السكران؟»

يقهقه آخر، يصفق على ركبته:

«يا زول، نمت في نص الزلط؟»

بحـيرة، ألمس رأسي الدامي. أطراف أصابعـي بالكاد تُدرك وقع الصدمة، حتى يجذب صبي طـرف جلباب والده، يرفع يده المرتجفة مشيرًا نحو الأعلى:

«يابا، شوف! النخلة وقعت!»

أتبع إصبعه. هناك، على حافة الطريق، سعفة نخيلٍ ضخمة، مشرشرة الحواف، ممتدة على الأرض كحدّ سكين أنهى لتوّه عمله.

حينها فقط أدرك الحقيقة: لا كمين، لا شجار، مجرد نخلة، مالت، فسقطت... وسقطتُ معها.

الضحكات تتعالى، كخناجر صغيرة تذكّرني بسخافة حظي. لا أدري إن كان حصاني هنا طوال الوقت أم أنه أكمل الطريق وحده، قاد الكارّو إلى السوق كأنه التاجر، وأنا مجرد الراكب.

أمسك اللجام، أرفع نفسي بصعوبة فوق العربة، الألم يخفق في رأسي كنذير شؤم.

اسحب اللجام.

«يلا، بسم الله،» همست، بسخريةٍ لم تخفَ على أحد. «قبل ما تجينا مصيبة تاني».

تتأوّه العجلات، وتتحرك عربة الكارّو، تسير بخطواتها الهادئة، كأن شيئًا لم يكن.

وبجانبنا، النيل يمضي بلا عجلة، صامتًا، يحفظ أسراره كما يفعل منذ الأزل.

(في عينيها شيءٌ من بلة)

لا يمكـن لأحدٍ في قريتنـا أن يأنس في خلوة، أو يحزن في صمت. فما إن تشـقّ زغرودة مدوّية سكون الظهيرة، أو يرتفع نحيب مكلوم إلى السـماء، حتى تهرع القرية بأكملها إلى الحدث، تتولاه وتديره من غير استئذان.

في ذلك اليوم، حمل الهواء نغمة احتفالٍ مشوبة بمسحة من الأسى، فقد جاءت الزغرودة التي بلغت مسامعنا خليطًا من احتفال مشوبٍ بطعم الفقد.

ازدحـم أهـل القرية عن بكرة أبيهم في لوريٍ قديم، نَهَشَـهُ الزمن حتى صار صوته أشبه بزئير وحشٍ أسطوري أفاق من سباتٍ عتيق.

كان ينسـاب عبر حقـول الذرة اليابسـة، عجلاتـه الضخمة تنثر سحبًا من الغبار، تتراقص في ضوء المغيب.

كان يومًـا مثاليًا للصـوص القرى المجاورة لينهبوا ما شـاءوا من الأزيـار المطحلبة، وأسِرّة الحبال المهترئة، والقدور المحروقة. غير أنه لم يكن ثمة لصوص.

منحـدرات التلال الوعرة ترددت بأصواتٍ متنافرة النغم، لكنها نابضة بـروح الأرض، تناثرت من بين الشـقوق والصخور، وحتى

حـاج جادين إمـام القرية، والمأذون، والطبيب غير الرسـمي، انضم إلى الجوقـة بصوتـه الجهـوري، مذكّـرًا الجميـع، بلهجةٍ طريفـة، أنه شخصيًا من قام بختان العريس حين كان طفلًا.

في قريتنـا، الخصوصيـة غريبـة الوجـه، والتخصـص رفـاهٌ غـير معروف. هنا، تنسـج الحياة نفسـها كلوحة تكعيبيـةٍ بالية، عبثت بها الزرازير حتى شوهتها.

ليـس بعيـدًا عن النهر الهامـس، دار اللوري المهترئ حول نفسـه بعشـوائية، كجـروٍ يطـارد ذيلـه، نافثًـا غبـارًا كثيفًا في الهواء المشـبع بالحرارة.

وسط هذه الدوامة، تعالت أصوات الفتيات في غناءٍ صاخب:

«دور بينا البلد داك، أحرق الجازولين والبابور جاز!»

ثـم اندفع العريس نحو النهر، غامسًـا قدميـه في برودته، متوضئًا بخشوع، بينما امتزجت التراتيل الخافتة مع همس الماء المتدفق.

عندمـا خمد زئير المحرك، ألقى اللـوري حمولته دفعةً واحدةً لدى باب الدار، كما لو أنها جسدٌ واحدٌ يتنفس. استقبلتهم زغاريد النسوة، وعطرٌ السـيد علي النفّاذ، رزازه المنعش يحمل للحظاتٍ قصيرة وعدًا بالراحة، قبل أن يعود الحرّ ليحكم قبضته.

عـلى مقربة، كانت عمتي دار النعيم تمتصّ آخر خيوط الشـعيرية المغموسـة في الحليب والسكر، شـفاهها الممتلئة تنفرج على مضض،

كأنّها تأبى أن تطلق حلاوة الطعم من ذاكرتها.

أمامها صينية فضية لامعة، تشهد على مذبحة راح ضحيتها ضلعي ثور، دجاجتان مشويتان بإتقان، كومة من الأرز المتبخر، صحن عصيدة مغمور في مرق الزبادي، وعاء طازج من طبيخ البامية، ستة أرغفة ضخمة، وسيلٌ من المقبلات التي كانت تدحض فكرة المشاركة.

ثم دخلت العروس.

صمتٌ مباغت.

توقفت ثرثرة النساء المتحمّسات، اللواتي كن يتكلمن في آنٍ واحد، وساد المجلس رهبةٌ غير مألوفة. حتى الرجال، الذين لا يكفون عن الجدل في كل صغيرةٍ وكبيرة، أوقفوا سجالاتهم.

كانت فاتنة.

وجهٌ بيضاوي، مشرقٌ بوهجٍ قمحّي دافئ، تزينه جبهةٌ عالية ناعمة. شفتاها الرقيقتان انعطفتا في ابتسامةٍ وديعة، كُشف معها صفٌّ من الأسنان كحبات اللؤلؤ. أنفها المستقيم الصغير بدا منحوتًا ليتناغم مع كل شيءٍ آخر.

لكن العيون، ذلك البحر الواسع من عينيها، حيث استلقى الليل في حضن ضوء القمر، غرق فيه أهل القرية جميعًا.

ورغم ذلك... كان هناك شيءٌ آخر، غامض، يطفو في عينيها،

يلمع كذكرى غير منطوقة، كلغزٍ لم يكتمل.

وفجـأة، انطلق عويلٌ جريـح، عويلٌ مفاجـئٌ، منفصلٌ تمامًا عن صخب الفرح.

كان صادرًا عن عمتي دار النعيم.

انحدرت دموعها كما تنحدر مياه النيل في موسم الفيضان، تنبش ألمًا مدفونًا لم يره أحدٌ سواها.

اقتربتُ منها، سائلًا بصوتٍ مرتجف:

«مالـك يا عمتي؟» رغم أنني شـعرت بأن الإجابة كانت تسـبق سؤالي قبل أن أنطقه.

لكن لا... لم يكن الأمر كما توقعت.

لم تكـن تبكي من إثر الوليمة الضخمـة، ولم يكن الحزن قد هجم عليها بغتة بلا مقدمات.

كانت دموعها تتساقط لأنها رأت شيئًا لم يره أحدٌ سواها.

اسـتدرت ببـطءٍ نحو العـروس، واقفةً في وسـط الـدار، عيناها متسعتان بدهشـةٍ قلقة، تجوب الوجوه بحثًا عن تفسيرٍ لهذا الصمت المباغت.

وبين شهقاتها المتقطعة، همست عمتي دار النعيم، كأنّها تبوح بسرٍ أثقل من أن يُقال بصوتٍ عالٍ:

«البنية العروس...»

توقفت، تحدّق بها بعينين مذهولتين، ثم تابعت بصوتٍ بالكاد يسمع:

«عويناتها... فيهن شيء من ضحكة بلة!»

بلة.

في تلك اللحظة، بدا وكأن الشمس قد خفت ضوؤها، والنسيم توقّف، والقرية بأكملها علّقت أنفاسها.

كان بلة... بلة الذي رحل، بلة الذي دهسه لوري العام الماضي، تاركًا خلفه جرحًا لم يلتئم بعد.

بلة، القصير المكتنز الجسد، ضيّق الجبهة. كان أنفه كبيرًا بشكلٍ غير متناسق، وعيناه الصغيرتان تتوارى فيهما نظرةٌ مرحة. شفته السفلى، العريضة المتدلية، تحمل أثر رفسة حصان في يومٍ مشؤوم، جعلته يفقد قواطعه ومعظم أنيابه.

ومع ذلك، كان فيه شيءٌ لا يمكن وصفه، شيء يشعّ من وجهه. ابتسامته.

كانت ابتسامة بلة تُشرق كالشمس، كأنّه يضحك بوجهه كلّه، فلا يرى الناظر إليه أي شيءٍ آخر سواها.

والآن... تلك الابتسامة كانت تتوهج على شفتي العروس.

التفتُّ إليها.

ابتسامتها الساحرة امتدت كأشعةٍ خفية، تراقصت على وجنتيها،

عناقيد فمها، وعينيها الواسعتين.

كان في ضحكتها شيءٌ غريبٌ لكنه مألوف، شيءٌ يشبه بلة، لكنه ليس بلة.

شيءٌ لا يمكن وصفه.

ساد صمتٌ ثقيل.

حتى زغاريد النسوة تلاشت كأنّها لم تكن.

وفي عينيها، ظلّ هناك شيءٌ من بلة.

(من تحت الرماد)

لطالما علم أهل القرية أنها لم تكن يومًا نسيجًا واحدًا متجانسًا، بل كانت أقرب إلى أرض مرقّعة من قطع متنافرة، ألوان وأنماط لا يجمعها إلا الإصرار على التشبث بما اعتبروه وطنًا.

في شتى أركانها، تمسّك الناس بعاداتهم كأن كل زاوية دولةٌ مستقلة، وكل حيّ ينظر للآخر بشكٍ صامت ومريب.

في الشمال، كانت الرياح تحمل رمالًا خشنة تهمس بأخبار الصحاري التي لا تنتهي. وفي الجنوب، كانت الغابات الكثيفة بأوراقها الرطبة تنشد أغنية المطر بإيقاعٍ ثابت يشبه دقات القلب. في الشرق، كانت أمواج البحر تحتك بالشاطئ بإلحاح، وفي الغرب، انتصبت الجبال الوعرة، متجهمةً تحت سماءٍ رمادية ثقيلة.

كل رقعة من الأرض كانت تتنفس شروخ أهلها، وكل جهة تعتقد أنها الحقيقة الوحيدة. غير أن الحقيقة كانت رمادًا، ليس رماد حريق واحد، بل خليطٌ من رماد آلاف الحرائق، أشعلها الجشع والخوف معًا.

أشعلوا النيران في البيوت الأمنة، حتى باتت الأطلال ذاتها تتساءل: أين اختفى من كانوا يملؤون جدرانها ضحكًا وبكاء؟

غطّى الغبار الحقول الخصبة، وابتلعت السماء دخانها حتى غدت معتمة، خانقة، باهتة. وتلاشت الأغاني التي كانت تعانق الحارات الضيقة، وعمّ صمتٌ يبتلع حتى التنهدات.

تشظّى أهل القرية كأوراقٍ يابسةٍ تهشّمها ريح لا تبالي، وتفرّقوا في كل اتجاه. وحين عادوا، استقبلتهم بقايا مستوطنة خاوية، الطرق ملتوية، متشققة كقلوب مهشّمة، والجدران التي كانت تحضن الدفء باتت أشبه بشواهد قبور بلا أسماء.

لم يبقَ شيء سوى الرماد، لكن الرماد، كذاكرةٍ هاربة، لا يبقى طويلًا.

تحت شجرةٍ عتيقة، نسيها العالم وأغض عنها الزمن الطرف، في زاوية منسية من القرية المهدمة، اجتمع الشباب تحت ضوء القمر الكامل.

في ذلك الليل الكثيف السكون، حملت وجوههم صمتًا ثقيلًا، وعيونهم لمعت ببريق حكاياتٍ لم تُروَ بعد، قصصٍ تنتظر من يمنحها صوتًا.

وفي لحظةٍ مشحونة، صدح صوت فتاةٍ صغيرة، هامسًا في البدء، كنسيمٍ بارد يمر على أكتافٍ أنهكها الحزن. خرج صوتها من قلب الرماد المتوهّج، نداءٌ شفاف كيدٍ غير مرئية تمتد نحو طائرٍ نسي كيف يطير:

«مالك سجين ضيم المدن،
والدنيا قدامك سماء؟
مالك تحاذر خطوتك،
والريح تناديك للمدى؟»

اهتزت السماء كما لو أنها تسمع نفسها لأول مرة.

ثم تكلّم شاب بصوتٍ هادئ وواثق، كأنه يفتح نوافذ الأمل:

«لن نعرف القرية حتى نراها بأعين غيرنا».

وفي تلك الليلة، تركوا الركام خلفهم دون أن يلتفتوا. لم يكن هروبًا، بل شروعًا في رحلةٍ صادقة نحو نورٍ جديد، بذرة أمل.

أمسكوا بأيدي الأطفال، ومضوا نحو أراضٍ لم تطأها أقدامهم من قبل، حيث جمالٌ لم يُكتشف بعد ينتظرهم بين التلال والغيم. تركوا الأجيال القديمة، التي لا تعرف سوى حقيقة وحيدة، خلفهم.

ومع خطواتهم على الطرقات المغبرّة، عادت السواقي المنسية لتئنّ ببطء، عجلاتها تدور كأنها تهمس بأغاني الأمهات القديمة. وفوقهم، طارت الطيور في حلقاتٍ، تصيح وتغرد، كأنها تقول:

«ما أجملهم، أولئك الذين تحملهم نسايم الليل،
يشتاقون إلى لغاتٍ لم يسمعوها،
وأغنياتٍ لم يلمسها الحزن.

إنهم يحملون القرية في قلوبهم».

أمل، بنت الصحراء، رفعت عينيها نحو الجبال الشاهقة.

لم يعـد صغـار القرية يختبئون في كهوفٍ مظلمـة خوفًا من براميل الماضي المتفجـرة. بل أصبحوا يركضـون ويضحكون، كأن الأرض الجبلية احتضنتهم منذ الأزل.

كانـت أمل في البدء تنظر إلى الصخور بعين الشـك، وكأن الحياة لا تُزرع في اليابس.

لكـن الحجارة، التي لطالما صقلتْها قـرون الرياح والمطر، علمتها أن حتى الأقسى يمكنه أن يحمل البذور.

شاركتهم الزرع، وحين حلّ الحصاد، رقصت معهم (الكمبلا).

أمـا إبراهيم، الـذي طالما ظن أن العزة لا تنمو إلا في قمم الجبال، فقد جذبته أمواج البحر.

في البدايـة، بـدت له الشـباك ثقيلة وغريبـة، وانزلقت الحبال بين أصابعه المبتلة بالملح، لكنه لم يكن وحده.

كان الصيادون يبتسمون بصمتٍ حكيم، يرشدونه بلطف.

ومرت الشـهور، حتى جاء اليوم الذي وقف فيه بينهم على حافة الشاطئ، يرقب الأفق وكأن ماضيه يتلاشى في المدى.

وحين أمسك بيده أول سمكة، همس إليه شيخ من الصيادين:

«الآن، البحر يعرفك».

فضحك إبراهيم ضحكة حقيقية، وشعر أن شيئًا عميقًا بداخله قد تغيّر.

في الشمال، حصد شباب الجنوب سنابل القمح.

وفي الغرب، زرعوا أشجارًا ستظلل الشرق.

وفي الجنوب، جفّفوا دموع الأمهات، وتناولوا مع منقو (البفرا).

صارت الأغاني لا تتنافر، بل تتحاور، تنسج سيمفونية جديدة من فهمٍ وحنان.

وكانوا حين يجوبون ركن جديد من الوطن السعيد، لا يسألهم أحد:

«من أين أتيتم؟»

بل يسمعون أصواتًا تقول، «كيف أصبحتَ منّا؟»

وتقول الحكاية إن طائر الفينيق الأسطوري، الذي يحلّق بين الجبال والسهول، شوهد يومًا يطوف حول القرية.

رفرف بجناحيه مرةً واحدة، فتطاير الرماد وتحول إلى حقولٍ خضراء.

ثم ارتفع في السماء، يحلّق في فضاءٍ لا يعرف الحدود، يحمل معه وعدًا بمستقبلٍ يولد من بين الرماد.

(القطرة الأخيرة)

الـكأس تطفو أمامي، زجاجها يعكس وهج الشـمعة المرتعشـة، تخفي في جوفها سرًا أقدم من الليل.

رائحة (العرق) النفاذة تتسـلّل عبر المسـافة بيننـا، حادّة، لاذعة، تلتفّ حولنا كأصابع غير مرئية.

ليلتي الأولى في الميس.

«اشرب».

قالها بصوتٍ متعب، لكنه محمّل بإغراءٍ قديم.

«يدفئ عظمك».

ابتسمت، هزّة صغيرة من رأسي تسبق كلماتي:

«أعفِ لي، شكرًا».

مـال برأسـه قليـلًا، عينـاه تتوهجـان بفضـول سـاخر، وشـفَتاه تنفرجان عن ابتسامةٍ مائلة.

«ما بتشرب؟»

سأل بصوتٍ هادئ.

«ما بشرب».

قلتها ببساطة، لا وعظ، ولا اعتذار.

تنهد، خفض جسـده على الكرسي الخشبي الذي أطلق أنينًا تحت ثقله، أصابعه المتعبة أحكمت قبضتها حول الكأس، والسائل العكر يدور ببطء.

«إذن أنت تؤمن، صحيح؟»

كانت عيناه تبحثان عن شيء في وجهي.

«بماذا؟»

سألت، والحذر يندسّ في صوتي.

«بكل شيء».

لوّح بالكأس كأنها عصا ساحر، والعرق يتمايل داخلها.

«الجنة. النار. الحساب».

تمهّلت في الرد، ثم قلت أخيرًا:

«الإيمان مسألة غيبية... درجاته تتفاوت بين الناس».

ارتشف رشفة طويلة، ثم نفض الهواء بيده كمن يُبعد ذبابة:

«أنـا أؤمـن بأنـه عندمـا نرحـل ينتهـي كل شيء. كأنـك تطفـئ شمعة... ضوء واختفى».

فرقعة أصابعه اخترقت السكون بيننا.

تأمّلت وجهه، خطوطه المحفورة كأخاديد نهرٍ جفّ نصفه، عيناه

محمّلتان بتعب السنين، لكنه لم يهتز.

«وإن كنت مخطئًا؟»

سألته بهدوء، نبرتي ليست تحدّيًا، بل تساؤلًا صادقًا.

ضحك، صوته عميق، مليء بالثقة:

«وقتها... ستكون مفاجأة. أليس كذلك؟»

هززت رأسي ببطء، ونظرت إليه مباشرة:

«لا. وقتها ستكون مصيبة كبيرة».

ارتفع حاجباه، مفاجأة خاطفة مرّت على وجهه.

تابعت، بصوت هادئ لكنه ثابت:

«إن كنتُ مخطئًا، فلن أخسر شيئًا. لكن إن كان تقديرك أنت خاطئًا...»

تركت الجملة معلّقة، ثقيلة بوزنها.

انفجر ضاحكًا، ضحكة غنية ممتلئة:

«أنت تتحدث بنظرية الاحتمالات!»

«ممكن».

رفعت كتفيّ بكسل.

«لكن لما المخاطرة؟ لماذا لا تصدق كإجراء احتياطي؟»

نظر إلى كأسه، ضوء الشمعة يرقص فوق السائل العكر.

أمال رأسه قليلًا، ثم حرّك الكأس ببطء قبل أن يهز رأسه:

«لأن الإيمان ليس قرشًا ترميه في الهواء ليرسو على (طرة) أو (كتابة). ليس معطفًا تلبسه عندما يبرد الطقس. لو آمنت على سبيل الاحتياط، فلن يُسمى هذا إيمانًا، بل خوفًا».

تركنا الصمت يأخذ مكانه بيننا.

شعرت بكلماته تسري في الغرفة كموجة بطيئة.

أخيرًا، تنهدت وقلت:

«أنا لا أحكم عليك بسبب ما تتجرّعه،» أومأت برأسي نحو الكأس في يده، التي لم يبق فيها سوى القليل.

«لكن أن تعيش حياتك وكأنه لا شيء بعد الفناء... فهذا ما لا أستوعبه».

نقر بأصابعه على الزجاج.

الإيقاع ثابت، متأمّل.

«أنا لا أحتاج للحياة الآخرة،» قالها بصوتٍ خافت، كأنه يتحدث مع نفسه أكثر مني.

أشار بيده إلى الغرفة حولنا، إلى نور الشمعة المرتجف، إلى الهدوء الممتد خلف الجدران حيث النيل يمرّ بلا عجلة.

«عندي هذه... تكفيني».

شـاهدته وهـو يشرب القطرة الأخيرة، رأسـه يميـل إلى الخلف، والسائل يختفي.

في الخـارج، كانت الريح تنقل همس المـاء، تتحرك بإصرارٍ ناعم، بلا ذاكرة، بلا وعد، فقط تمضي، كما كانت دومًا.

(همسات لدى الهاوية)

في ليلة بدت وكأنّها تمتد إلى ما لا نهاية، وجدت حفيدة الشيخ بحر العلوم، سليلة النسب النبيل ووريثة الإرث الصوفي للشيخ سليمان ود عوض المولى، نفسها مدفوعة بلا تفسير نحو الحافة.

تحت سماء مثقلة بأسرار قديمة، قبعت مريم لدى الهاوية، حيث تمتد ظلال الليل بثقلها على أحياء العشش العشوائية.

تلك الأحياء التي كانت مبعثرة حول الخرطوم كحبات خرز داكنة تحيط بعنق فتاة خلاسية، حيث لا فرق بين درجات الأزرق والأخضر، كله «أخدر» وكل ما هو فاتح «أبيض»، أما السواد، فله وجوه متعددة: إن كان فاتحًا، حمل في طياته ملامح القبول والجمال، وإن اشتد، صار نقمة تلتصق بأصحابها كقدر محتوم.

في أحد أركان هذا «الحزام الأسود»، كما يسمونه، عاشت مريم يعقوب تية، خلف جدرانها الهشة.

كانت محاصرة في عالم من اليأس لا يرحم، أيادٍ خفية أحكمت قبضتها حول روحها.

لم تكن عشتها أكثر من قطع خيش وحصير، لا يرد حر الصيف ولا يمنع عنف الخريف.

أما في داخلها، فقد كان والدها المشلول، الملقى على حصيرة بالية، كجذع نخلة سقط ميتًا، هو العبء الوحيد الذي تحملته وحدها، تطعمه مما تجود به عوضية كبار، وتعتني به بصبر أثقل كاهلها.

في المرآة المكسورة، تأملت مريم شعرها الجعد وبشرتها الآبنوسية العميقة، ارتدت فستانًا أخضر باهتًا كان في يوم ما أسود، وانزلقت قدماها في حذاء الزيزي البلاستيكي المهترئ.

عادت إلى ذهنها كلمات عوضية كبار بالأمس، وهي تمد لها طبق فول ورغيفين:

«يا مريم، أنت شائلة الدنيا فوق كتفك. ليه ما تجي معاي؟ بدل القعاد في الفقر ده، أفرّجك على الدنيا».

نقلت مريم نظراتها بين جسد أبيها الراقد بلا حراك، وحواف عشتها المتهالكة.

لَوهلة، شعرت أن الحبال التي تقيدها بدأت تتراخى، لكنها سرعان ما قبضت عليها بنفسها، كأنها تعيد تأكيد المسؤولية الثقيلة التي تكبلها.

هزّت رأسها بصمت.

ابتسمت عوضية قبل أن تختفي في ظلام الليل.

في الليل، تداخلت الأصوات: بكاء الأطفال الجوعى، همسات الجيران المتعبة، عويل كبار السكير، يترنح عائدًا يغني:

«يـا كوكو مـا ترميني في السـيدرة... بقع بقع في السـيدرة... يا كوكـو أنا زول أكوك، ما ترميني في السـيدرة...» ثم، عواء الكلاب الضالة في الأفق.

لهثـت مريم وهـي تحـاول اللحاق بخطـوات عوضيـة المسرعة، متتبعة أثر عطرها الرخيص وسط العتمة الخانقة.

لا تـزال الصور تحـترق في ذاكرتها، الجنود يدوسـون على جسـد والدها الموثق، بالحبال، وأمها تصرخ قبل أن تخفت أنفاسها إلى الأبد تحت وطأة أقدامهم.

في الأفق، كانت أضواء السـيارات تنسـاب عـلى الطريق الملتوي كأفعى عجوز.

توقفت إحداها أمامهما، كوحش مترقب، مفترس وصبور.

تبادلت عوضية كلمات مقتضبة مع السائق، ثم فتحت باب المقعد الأمامي.

الباب الخلفي انفتح لمريم.

تجمّدت.

أيادٍ غير مرئية تدفعها إلى الداخل.

امتزجت رائحة العطر الرخيص بدخان الزيت المحترق المتصاعد من العادم.

في ذهنهـا، ظهر وجه أبيهـا الغارق في بؤس، وصوت جدها بحر

العلوم يتردد من أعماقها:

«يا مريم، لو كان الفقر رجلًا لقتلته. لكن أحيانًا يا بنت الشيوخ، الصبر أكبر من الفقر».

ثوانٍ مرّت، أو دهر.

في عيون السائق، وابتسامة عوضية، والرجل القابع في المقعد الخلفي، كان هناك انتظار صامت، متحفّز، محمّل بالترقّب.

لكنها لم تفعل.

استدارت.

ركضت.

كل خطوة تقرّبها من العشش القاتمة، وقلبها مثقل بحنان غريب، كأنها تلامس ضوءًا خافتًا في العتمة التي حكمت وجودها طويلًا.

(عزاء بأثر رجعي)

كان الزفاف يُقام في ساحة بيت العروس، حيث تجمّعت النسوة يتبادلن القصص والنكات ونفحات الفرح، كأن كل واحدةٍ منهنّ تحمل نغمتها الخاصة لتُكمّل حوار الجماعة المتلاحم.

كانت الأصوات تختلط في وحدة لا تنفك، والضحكات تتردّد كأصداءٍ خفيةٍ في زوايا المكان، دون أن تفوت إحداهنّ كلمة واحدة.

انتشرت رائحة البخور ممزوجةً بعبير الكركديه المبهج، بينما تسلّلت أنغام الطنبور الخافتة من بعيد، كهمساتٍ من زمنٍ كانت فيه الأصوات تروي حكايات الودّ والحنين.

في ركنٍ هادئٍ بين ظلال الحائط العتيق تجسّدت اللحظات، إذ جلست زينب بت حاج أحمد ممسكةً بمنديلٍ مطرّز بعناية، كما يمسك الغريق بخشبة نجاة، وعيناها تترصّدان وجه امرأة تقف أمامها، حواء بت الفكي حسن.

كانت حواء تمضغ حبّة قرنفل بلامبالاة، تخفي بها ألم ضرسٍ يؤرّقها، فيما كانت ملامحها حاملةً لذكرياتٍ عتيقةٍ لوقع الحياة الرتيب في بيئة الشمال القاسية.

همست زينب بشظايا من نبرة عتابٍ قديم، ثم دشّنت كلماتها قائلة:

«لم تأتِ لتعزّيني يا حواء... يوم وفاة والدي، لم نرَ وجهكِ ولا لاحظنا حضوركِ. والله إن وفاة والدي آلمتني وأثقلت عليّ الدنيا».

رفعت حواء رأسها ببطء، كما لو كانت تستحضر لحظاتٍ مدفونةً بين طيّات الأيام، ثم أجابت بصوتٍ يرتجف:

«أنا؟! يا زينب، لقد كنتُ أمسك يدكِ يوم الدفن. كنتِ ترتدين الثوب الأزرق الذي جلبته لكِ خالتك السُّرَّة من مروي، وكان يحمل عبق الزمن، حين كان كل شيء يُصنع بضمير».

تابعت بنبرةٍ خافتة تحمل بين صفيراتها ثقةً مختلطةً بالسخرية:

«ألا تذكرين، يا بنت حاج أحمد، حين كنتُ أتيكِ وأنا أحمل زلابيتي والشاي بالحليب عند بزوغ الفجر؟ أربعين يومًا ولم تريني؟ ما الذي جرى لكِ؟»

ضحكت زينب ضحكةً قصيرة، كأنها محاولة لإخماد ألمٍ من أيامٍ خلت، فأجابت:

«ذلك كان ثوب والدتي المرحومة، رحمها الله. أما أنتِ، فلم أرَكِ ولا رأيتُ زلابيتك، ولم أسمع منكِ شيئًا».

تدخّلت بتول بنت الصديق بصوتٍ حاد، مقاطعةً مجرى الحديث، قائلة:

«أنتـم تخلطون الأمور في حدثٍ وقع قبل عشرين عامًا. رحم الله عم حاج أحمد».

لم تـترك كلماتها مجالًا لعمق الحوار، إذ سرعـان ما انتهرتها زينب، فانزوت بعيدًا عن المشادّة المتشابكة بين العجوزتين.

جمعت حواء يديها بثباتٍ رغم رهبة الزمن، وقالت بلهجةٍ ملؤها حنقٌ مرسومٌ بالألم:

«كنـتُ آتي إليـكِ من طـرف الحِلّـة في الصباحـات الأولى، تحت وهج شـمس الظهيرة وفي ظلمة الليل. ألا تذكرين تلك السـنة التي مـات فيها عمّ حاج أحمد، رحمه الله؟ السـنة التي أتى فيها الجراد على الأخضر واليابس».

وفي تلـك اللحظة، تدخّلت بتول مرةً أخرى بصوتٍ قاطعٍ معلنةً بحدّة:

«وأنـا كنتُ حاضرة؛ والله يا زينـب، لقد حضرتْ، لكنها جاءت متأخرة... بعد الدفن بيوم».

هنالـك، كانت حواء من انتهرها، فانزوت بتول إلى ركنها كجروٍ طريد.

مع انتهـاء الكلمات المتبادلة ككرة بـين خصمين لدودين، خمدت الأصـوات حتـى باتـت كالشـجرة الذابلـة التـي فقـدت بريقهـا، وانسحبت حواء من ساحة الصراع كأنها مغروسة في زاويةٍ منسيّة.

توقفت زينب فجأة، كأنها فقدت القدرة على استنشاق الهواء للحظة، فارتجف المنديل المطرّز في يدها وكأنه يشاركها حزنها، ثم نادت بحدّة:

«ها قد سمعتم؟ لقد حضرتِ متأخرة!»

مدّت حواء كفّيها نحو السماء، كأنها تنشد عون الله على وطأة الهموم، وهمهمت بنبرةٍ جادّة:

«يا أهل الله الصالحين... يا الشيخ ود الأرباب، يا الشيخ حسن ود حيسونة، تبينوا و بينوا».

وعلى الطرف الآخر، كانت بعض النسوة تُخفي ضحكاتها المكتومة، فيما تمايلت فتاة صغيرة كانت تُرهف السمع من بعيد، هامسةً:

«ها هي حاجة حواء تدخل في دور استنجاد بأولياء الله الصالحين، وقد تحوّل الأمر إلى مسرحيةٍ هزلية».

وفي خضم تصاعد الحديث، دخل الطيّب ود حاج حمد، زوج زينب، مرتديًا جلبابه المائل للرمادي، وعلى وجهه علامات رجلٍ تجاوز حدود الصبر.

وقف بين النسوة بوقار، ومدّ يده بحزمٍ نحو زينب، وقال بصوتٍ هادئٍ كالصاعقة:

«زينب، توقفي هنا. ولا كلمة أخرى في هذا الموضوع البغيض...

أقسم بالله، إن كرّرتِ كلامكِ هذا مع بنت الفكي حسن، فستكونين مطلقةً بالثلاث».

ساد صمتٌ ثقيل، حتى خفت صوت الطنبور البعيد، كأن الزمن توقّف. فتراجعت زينب بخطوةٍ صغيرة، فسقط المنديل المطرّز من يدها، وجلست مذهولةً، وعيناها تغوصان في بحرٍ من اللاشيء.

طرقت حواء بصوتٍ هادئ، ثم جلست ببطء، تلمس ركبتها وكأنّها تذكّرت الوجع الذي خلّفته السنين. أما بتول، فابتسمت ابتسامةً جانبيةً مليئةً بحكمةٍ مستترة، وقالت:

«لقد شرب الزمن وأكل علينا، وكل واحدةٍ منّا تحمل قفةً مثقوبةً تتساقط منها الذكريات كما يحلو لها، وتبقي ما تريد كما تشاء!»

وفي نهاية الحفل، وقبل أن تغوص الشمس في بحر الرمال المتوهج، كانت زينب تمسح فمها بيديها المترنحتين على منديلها المطرّز، فيما قدّمت لها حواء فنجان قهوة يعبق برائحة الهيل والزنجبيل.

ضحكت حواء بنصف ضحكةٍ دافئة، وقالت:

«المهم، ألا نعيد الليلة العزاء في فرح الفتاة، وحتى لا نخرب بيوتنا بأيدينا».

فأجابت زينب، رافعةً الفنجان بحماسٍ خافت:

«ولو حضرتِ متأخرة إلى عزاء والدي-رحمه الله- فإن هذه القهوة قد أتت في موعدها».

(سميري الفي ضميري)

في قريتنا الوادعة، عند منحنى النيل العظيم، كانت الليلة ليلة عُرسٍ مشهود. اجتمع الناس تحت ضوء القمر وزينة الساحة، وبين أصوات الزغاريد وخليطٍ من رائحة الدلكة والمحلب وفتة الخروف والكمونية والفطير. الجميع ينتظرون ليلةً مليئةً بالمواقف الطريفة والذكريات التي لا تُنسى.

على طرف الساحة، جلست الحاجة ست النفر في المكان المعتاد «للحبوبات»، تُراقب الحفل بعينيها الصغيرتين الحادّتين. الأجداد لم يكونوا هناك، إذ إنهم يعتبرون هذا الشيء «مسخرة» بحكم التقاليد.

المغني بدأ يغني بصوتٍ شجي:

«وين سميري... سميري الفي ضميري... نزلت مني دمعة... واليوم كان جمعة... والأمة مجتمعة... وين سميري؟»

عند سماع الكلمات، شعرت ست النفر وكأن الأغنية وُجهت إليها مباشرة. انهمرت دموعها فجأة، وبدأت تمسح عينيها بطرف «التوب»، لكن دموعها لم تمر دون ملاحظة بت الصديق التي كانت تجلس بجانبها.

«مالك يا ست النفر؟ الأغنية هذه هزّتك بشدة كأنها عن بعلك».

تنهدت ست النفر وقالت:

«يـا بت الصديق، ولدي سـمير... سـنتين لم أراه. ودي لو أراءه وأسمع صوته... لكن الله غالب، أخذته الخرطوم منا».

في زاوية أخرى من الحفل، كان الفاضل ود الخليفة، الذي عقد قرانه على نفيسـة بت حاج الطاهر العام المـاضي، يجاهد لإخفاء انزعاجه. فقـد جـاء إلى الحفـل بدون زوجتـه التي مـا زالت تتزيـن في البيت.

ود الخليفة، الذي لم يسـتمع يومًا إلى راغب علامة يغني «نسـيني الدنيا»، أو إلى براد بيزلي في «في انتظار امرأة»، كان الرجل السـوداني التقليدي الذي يرى الرومانسية نوعًا من «الحنكشة» الغير المبررة.

قال في سره:

«يا اخي لا يعقل هذا... جربت كل الفسـاتين، وليسـت جاهزة بعد. لنرى، سوف يمضي هذا العرس بدونها!»

جلس يحاول التظاهر بالهـدوء، لكن كلمات الأغنية أصابت قلبه في مقتل:

«جن مرات تلاته... وفيهم زولتي زاتا...»

لم يستطع تحمّل الأمر أكثر. قام فجأة وقال بصوتٍ عالٍ:

«لا ينفع هذا الكلام! هذا العُرس لا يكتمل من غير نفيسة».

ركض عائدًا إلى البيت ليُحضرها بنفسه، تاركًا أصحابه في دهشةٍ وحيرة.

وجدها جالسة أمام المرآة، «صارةً بوزها كما تصر الجدات العُملة المعدنية في أطراف أثوابهن».

«قمي يا زولة، قمي! الناس كلهم جالسين هناك، وصاحبتك العروس في انتظارك. جردتني نظرات الناس من كل كرامة».

ردت عليه بغضب:

«ذهبت وحدك وتركتني هنا كأنني لا شيء؟ طيب، انتظرني حتى أجهز».

«تجهزي لماذا؟ والله إن لم تأت، لأرجع و أخبر الجميع بأن العروس والعرس نفسه لا يروقان لك».

بعد محاولاتٍ مضنية، نجح ود الخليفة في إقناعها، لكنها لم تُغادر البيت إلا بعد أن حلف لها ثلاث مرات أنه لن يتركها في أي حفلٍ آخر.

عاد ود الخليفة إلى الحفل مع زوجته وسط التصفيق والزغاريد. الجميع بدأ يغني مع المغني الذي زاد حماسه:

«يا مراكبي عديني... حبيبي راجيني... وين سميري؟ سميري الفي ضميري...»

ولكن، وسط فرحة الحضور، انطلق صوت مألوف من خلف الساحة:

«وين سميري؟ أنا هنا يا أمي!»

كان ذلك صوت سمير ود ست النفر، الذي ظهر فجأة بعد غيابٍ دام سنتين.

نظرت ست النفر إلى مصدر الصوت، وركضت نحوه كما لم تركض من قبل.

«يا سمير! ولدي رجع!»

احتضنته ست النفر وسط دموع الفرح وتصفيق الحاضرين، الذين لم يتوقعوا أن تكون نهاية الحفل بهذا الجمال.

بين حضور زوجة ود الخليفة، وعودة سمير، وأغنية «سميري الفي ضميري»، تحوّل الحفل إلى ذكرى لا تُنسى.

ضحك الناس على مواقف ود الخليفة وزوجته، وبكوا من فرحة ست النفر وابنها.

الأغنية التي بدأت كإيقاعٍ عادي أصبحت في قريتنا رمزًا للحب، للوفاء، وللحنين الذي يُعيد البعيد إلى حضن أهله.

عندما انتهت الليلة، قالت بت الصديق ساخرة:

«يا ناس، هذه الليلة لم تكن محض عرس، بل كانت احتفالًا برجوع الغائبين!»

«سميري الفي ضميري... نزلت مني دمعة...»

كانت أغنية حفرت مكانها في قلب كل من حضر تلك الليلة.

(الأرض العطشى)

الليلةُ الظلماء جاثمةٌ على صدورنا، ورغم أن النهر لا يبعد سوى مرمى حجر، فإن ألسنتنا يبست من العطش.

غير أن الماء لم يعد همّنا الأكبر؛ ما يشغلنا الآن هو أن نخبّئ كنزنا في مكانٍ آمن.

من عتبة الباب، كنتُ أنا وأمي وجدتي نراقب خطواته المتثاقلة.

يمشي وكأن الأرض تسحب قدميه، وظلّه الهزيل يذوب في السماء الشاسعة القاسية.

الطريق، الذي كان يومًا مألوفًا، صار أشبه بساحة معركة، تعجّ برائحة البارود وصدى الطلقات.

الأرض خاوية، والناس... أصداء لما كانوا عليه.

تشبّثنا بجلبابه، أيدينا ترتجف كأوراقٍ يابسة في مهبّ الريح.

توسّلنا إليه ألا يذهب.

لكنه أبعدنا برفق، والتقط الدلو الفارغ.

قال بصوتٍ ثابت، صوتٌ تشقّقت حوافه كما تتشقّق الحقول الجافة:

«سوف أجلب الماء مهما كلفني ذلك».

خطٌّ من النار شقّ الأفق.

وسقط ملاذُنا كقصبةٍ انكسرت في ريحٍ عاتية.

تدحرج الدلو بعيدًا، يصدر صوتًا خافتًا، كأنه يردّد صدى وعده الأخير.

عندما هدأ الغبار واستقرّت الأرض، كان جسده ممددًا على التراب.

ساكنًا. صامتًا. كالأرض نفسها.

الماء الذي ضحّى لجلبه تسلّل من حافة الدلو، يختلط بالبقعة الداكنة التي تنمو تحته.

جلبابه رفرف بخفّة في الريح، كأن روحه تودّعنا.

هناك، تحت سماءٍ لا ترحم، استقرّ جسده، هادئًا، كما لو أنه صار جزءًا من الأرض.

في باحة الدار، نحفر برفق، مستترين بظلمة الليل.

أخرجنا ثيابه التي ارتداها صباحات الحقل، مسبحته التي التصقت بكفّه، وبقايا ذكرياته التي ظلّت عالقة في أرواحنا.

كأننا نحفر في أعماق قلوبنا، نخبّئ معه قطعة من أرواحنا.

قطرة ماءٍ باردة لامست جبهتي، عابرة، مجهولة المصدر.

بقيت للحظة، ثم تلاشت، كأنها دمعة السماء.

الليلة ثقيلة، وسنمضي عطشى.

لكننا خبّأنا كنزنا -من كان حبّنا ونبضنا- في حضن الأرض التي عشقها... وعشقته.

(الرجل الذي استعار يومًا)

عند بزوغ الفجر، ألقاه النيل على الشط. لا أثر لقارب.

يقف حيث يعانق الماء الرمل، سرواله الأبيض مشرب بطمي النيل الأسود، وكأنه لا يزال محاطًا بعناق خفيّ لا يراه أحد. المد يهمس برفق، يلتف حول كاحليه كوشوشة قديمة، لكنه يظل ساكنًا، مستغرقًا في سكون الصباح، مصغيًا إلى حفيف الأشجار، مترقبًا أنفاس القرية التي توقفت منذ زمن عن انتظار عودته.

توقفت امرأة، تتلفع بثوب كان أبيض يومًا، توازن جرة فوق رأسها، وقدماها غارستان في الطمي.

غير بعيد، صياد يحيك شباكه الممزقة، يضيّق عينيه حيال وهج الشروق.

وعلى الضفة، حلّق طائر أبو منجل، ألقى بصره على الغريب الواقف بين الماء والطمي، ثم غاب في الأفق.

في البعد، تصاعد همس خافت،تساؤل هنا، همهمة هناك،تموجت كاهتزازات الماء على سطح النهر المعتّق.

«بسم الله الرحمن الرحيم! أليس هذا سليمان؟!»

صاح أحدهم، قاطعًا رهافة الصمت.

«أجننت؟ سليمان غرق قبل سبع سنين، عندما غمرت المياه البيوت! كان لا يخاف البحر، لكن البحر غدّار... لا يُرجع من يأخذه».

ومع ذلك... ها هو ذا.

تقدّم، تاركًا آثار أقدام انمحت كأنها لم تكن.

الطريق نفسه، لكنه بدا أصغر، جدران البيوت، الأزقة الضيقة، حتى السماء بدت أقرب، مائلة بلون الذهب فوق منحنى النيل السرمدي.

عند تخوم القرية، ماج السوق بحركة الباعة وصخب المشترين.

لم يقترب أحد؛ راقبوه بعيون مرتابة، كأنه طيف مسافر من الضباب والماء، هشٌّ لدرجة أن لمسة واحدة قد تجعله يتلاشى.

«سليمان؟»

ناداه الجزار، وفي صوته ارتجاف.

كاد الساطور يسقط من يده.

وقف سليمان أمامه عبر الطاولة، وابتسامة ضبابية على جانب فمه، كأنها مستعارة من عالم آخر.

وحين تكلّم، رن صوته في أرجاء الجزارة، عميقًا، متغلغلًا كصوت يخرج من بئر قديمة:

«دينك في رقبتي، يا حاج عثمان».

ثم تابع مسيره، نحو الذكريات، عذبة ومريرة، نحو من مدوا له أيديهم يومًا، إلى ديون يمكن سدادها. وإلى الدين الذي لا يمكن.

لم يتغير السوق كثيرًا.

لا تزال رائحة الهيل والسمن البلدي تتسلل من دكان الحاج مرزوق، حيث أكياس العدس والويكة مرصوصة بمحاذاة الجدران كأنها شواهد على تقاليد راسخة.

بائع الخضار، كما كان، يكوّم بضاعته على جوال مبلل تحت ظل شجرة النيم.

وبائع الفحم، الذي صار جزءًا من تجارته، لا يزال عند حافة السوق، متشحًا بغبار أسود كأنه أثر من مداد قديم.

تحرّك سليمان بصمت بينهم، خطواته محسوبة.

توقف عند الدكان، ووضع ورقة نقدية على الطاولة الخشبية العتيقة.

رفع الحاج مرزوق رأسه بعينين معتمتين بدهشة، كأنه يحاول استدعاء حلم قديم.

«انت قريب سليمان ود عوض الجيد؟»

سأله الشيخ بشك.

بصوت هادئ، أجاب سليمان:

«أنا سليمان نفسه يا حاج مرزوق. لم تعرفني؟ جئت أسدد دَيْنِي،

وأطلب العفو».

حـدّق العجوز فيه، محاولًا اخـتراق غبار الزمن، ثـم أطلق زفرة بطيئة، وكأن الذكريات تعيد ترتيب نفسها.

أخيرًا، دفع الورقة النقدية جانبًا.

«والله، لا أذكر لك دينًا».

لم يجادله سليمان.

ترك الجنيهات حيث وضعها، ومضى في طريقه.

فعل الشيء نفسـه مع بائع الخضـار وبائع الفحم، فلم يترك أحدًا له عليه دين إلا ووفاه حقه.

ظل الطريق إلى بيتها كما هو، ضيقًا، تحفّه الأشواك الجافة، مرسومًا بأقدام العابرين.

لكنه، حين وصل، أدرك أن البيت نفسه قد تغيّر.

الجدران الطينية تدعّمت بالحجر.

الشجرة الصغيرة التي غرسها في الفناء كبرت في غيابه.

وقف أمام الباب.

حرّكت الريح التراب عند قدميه، وحمل الهواء إليه رائحة البصل المقلي والثوم والكمون.

ثم، جاءه صوت صبي.

تنفس ببطء.

أخـرج من كيسـه رزمـة أوراق نقديـة، مغلفة بعنايـة، ووضعها بجانب العتبة.

عندما انفتح الباب، لم تصرخ فاطمة، لم تتراجع، لم تتكلم.

كان وجهها ساكنًا كماء الفجر.

خلفها، وقف الصبي.

كان يشبهه، ملامح أنفه، تقوّس حاجبيه، لكن عينيه لم تتعرفا على الخيال الذي وقف في العتبة.

«من هذا يا أمي؟»

سأل الصبي بهدوء.

لم تسمع.

تلاقت عينا سليمان بعيني الطفل.

لم يكن رضيعًا حين رحل، لكنه كان صغيرًا بما يكفي كي تتلاشى ذكرياته عن الرجل الذي كان.

أشار سليمان نحو الرزمة عند قدميها.

حاول أن يتكلم، لكن الكلمات ظلّت عالقة.

لم تنزل عينا فاطمة على المال.

لم تقل: «فات الأوان».

لم تسأل: «لماذا عدت؟»

لم تطلب تفسيرًا.

فقط وضعت يدها على كتف الصبي، وأدارته بهدوء إلى الداخل.

ثم أغلقت الباب.

وبقيت الرزمة في مكانها، تلتقط الغبار.

عاد سليمان إلى الشط.

كان قرص الشمس يغوص في الضفة الأخرى.

راقبَت القرية بصمت، لم يقترب أحد، لم ينادِه أحد.

وقف عند الحافة، حيث يعانق الماء الرمل.

خفت الضوء، وامتدت الظلال.

ثم، في لحظة خاطفة، تموّج الضوء واختفى.

لا دوّامات، لا فقاعات.

فقط النيل، يواصل جريانه كما كان دائمًا.

وفي الفنـاء، حيث علقت روحه، ظلّـت الرزمة الصغيرة بجانب الباب، تجمع الغبار تحت سماء الغروب الخافتة.

(ليلة لا تنسى)

على ضفاف النيل الأزرق، حيث تتراقص أمواج النهر تحت أشعة الشمس الذهبية، يقف (فندق السودان الكبير) شامخًا كقصيدة حب للخرطوم.

كان يومها ينبض بالحياة. تمازجت أصوات الملاعق والشوك مع همسات الأحاديث، وتسللت أنغام الموسيقى الخافتة من البهو، تنسج معًا إيقاعًا مألوفًا لأمسيات الخرطوم.

جلست عواطف مع أختيها حول طاولةٍ مصقولة بالقرب من البوفيه المفتوح، وعيونهن تتبع انسياب النُدُل بين الأطباق الساخنة ببراعة.

كان الهواء مشبعًا بعبق الهيل والكمون والزعفران، يمتزج في كرنفال عطريّ يملأ الأجواء.

رفعت شوكتها لتناول أول لقمة من السلطة، لكن يدها توقفت فجأة.

«فائز».

كان واقفًا بالقرب من المدخل، وحيدًا، يُحرّك كوب شاي ببطءٍ مألوف.

الزمـن رسـم بصماتـه عليـه، خيـوطٌ فضيّـة امتدت بين شـعره، وخطوطٌ خفيفة حول فمه، لكن حضوره الهادئ ظل كما هو.

«أليس ذلك...؟»

تمتمت إحدى أختيها، تتبع نظرتها.

مسـحت عواطف يديهـا بمنديل، وترددت للحظـة فقط قبل أن تدفع كرسيها إلى الخلف.

«مجرد تحية سريعة،»

قالت، وهي تنهض قبل أن تمنعها أيٌّ منهما.

امتـدت الدرجات صـوب النيـل الأزرق، مياهـه الداكنة تتلألأ تحت أنوار المدينة كأنها أحجار عقيقٍ سائل.

التفت فائز عند سـماع وقع الخطوات، ضاقـت عيناه للحظة، ثم اتسعتا باعترافٍ هادئ.

«عواطف!»

قالها بصوت يحمل مزيجًا من الدهشة والدفء.

ابتسمت، شبحٌ من الحنين في عينيها.

«ظننت أنه أنت،»

ردّت، نبرة صوتها تحمل ثقل السنوات الماضية.

«مضى وقت طويل».

أومأ برأسه ببطء، طرف شفتيه يرتفع في ابتسامةٍ خافتة.

«نعم، مضى».

وقفا هناك، بين الحنين والتردد، كما لو أن عشرين عامًا لم تمر، بل طُويت بين طيّات الزمن.

«ما زلت تشرب شايك سادة؟»

سألت، مشيرة برأسها نحو الكوب بين يديه.

«وما زلتِ تحوّلين كل شيء إلى قصة؟»

أجاب بابتسامةٍ ساخرة.

ضحكة، دافئة ومألوفة، كأنها قادمة من زمنٍ آخر.

بعض الأشياء لا تتغير.

«هل بالإمكان؟»

قالت، وهي تشير نحو النهر.

«نمشي قليلًا؟»

كان الهواء ثقيلًا ورطبًا، يهمس بقدوم العاصفة.

سارا بمحاذاة النهر، بينما بدأت أصوات المدينة تتلاشى في الخلفية.

«هل تذكر تلك الليلة التي فاجأنا فيها المطر؟»

سألت عواطف، وعيناها تلمعان بتوهّج الذكريات.

تنهد فائز بعمق.

«العاصفة؟»

قال.

«الليلة التي ابتُلينا فيها حتى العظم؟»

ظهرت على شفتيها ابتسامة ماكرة.

«ألم تكن ليلة جميلة؟»

ضحك فائز ضحكةً جافة.

«لقد كانت كارثة».

هزّت رأسها.

«أنوار المدينة كانت تتراقص، والرعد كان يتردد من بعيد، والطريقة التي ركضنا بها نحو شجرة اللبخ العتيقة...»

ابتسم بسخرية.

«التي لم تحمِنا من البلل ولو قليلًا».

«شعرت وكأننا في حلم».

«بل وكأننا على وشك الإصابة بالتهاب رئوي».

دفعت عواطف كتفه بخفة.

«أنت دائمًا تركز على التفاصيل الخاطئة».

وهز فائز رأسه مبتسمًا.

«وأنتِ دائمًا تبالغين في تصوير اللحظات وكأنها مشهدٌ سينمائي».

هَبّت نسمة مفاجئة، تحمل معها رائحة الأرض المبتلّة.

سقطت قطرة واحدة على خد عواطف، ثم أخرى، ثم انهمر المطر دفعةً واحدة.

بلا تفكير، ركضا تمامًا كما فعلا قبل سنوات.

كانت شجرة اللبخ أمامهما، فلجآ إلى حمايتها كما في المرة الأولى.

لكن المطر كان أقوى من الأوراق، فسقط عليهما بلا رحمة.

مسحت عواطف الماء عن جبهتها، لاهثة.

«ديجا فو».

تأوّه فائز، وهو يمسح نظارته الغبشة.

«ليس مجددًا».

تلاشت ضحكاتهما في صمت، بينما كان الزمن ينحسر بينهما، كأنه لم يكن سوى ماء يتسرّب من بين الأصابع.

حين عادا إلى ردهة الفندق، كانت الأختين بانتظارهما.

رفعت إحداهما حاجبها:

«إذًا... مجرد تحية سريعة؟»

تجاهلت عواطف تعليقها.

التفتت نحو فائز، تبحث عن شيءٍ في ملامحه.

«لم تقل وداعًا أبدًا،»

همست.

ثبّت عينيه على عينيها لحظةً طويلة، ثم ارتسمت ابتسامة خفيفة، لكنها موجعة.

وقال بصوتٍ بالكاد يُسمع:

«مع السلامة، يا عواطف».

شهقت، لكن قبل أن تجد الكلمات، استدار ومضى.

وقفت هناك، تراقب ظلّه يتلاشى مع المطر... ومع الماضي.

قد لا تستطيع إقناعه بأن تلك الليلة كانت مثالية.

لكنها، في أعماقها، كانت تعلم ذلك.

وربما، فقط ربما،

كان ذلك كافيًا.

(سيأخذه الطوفان)

لم تكـن المجـاري بيتًا آمنًـا، ومع ذلك كانت المـلاذ الوحيد الذي يملكـه الصبيـة. لم تكن الأنفـاق القاسـية توفر مأوى مـن أمطارٍ لا ترحـم، ولا جدرانًا صلبة تقي بردًا قارسًـا، ولا كومـة بطانياتٍ لينة تُريح أجسـادهم الهشـة المتعبة. بل كانوا يتكوّمـون في حفرةٍ عميقة، مظلمة، محفورة تحت شوارع المدينة المزدحمة، ملجأ سري لا يلاحظه المـارّة المتعجلون أعلاهـم. حتى الكلاب الضالة، بفرائها المتشـابك وعيونهـا الحـذرة، وجدت لنفسـها زوايـا أخرى للنبـش فيها. لكن لهؤلاء الفتية، كانت هذه الشبكة المظلمة كلّ شيء.

أسـند آدم رأسـه المتعب على طوبةٍ متشـققة، بالية، كانت وسادته الوحيـدة، بينـما تمدّد الآخـرون في الزوايـا البعيدة، كلٌّ منهم يُجسّـد علامةً مختلفة على البقاء في عالمٍ قاسٍ.

فوقهـم، كان ضاحيـة الخرطـوم ٢ الراقية تتـلألأ كجوهرة تحت سـماء الليـل. في الأعلى، كانت المطاعـم تضج بالحيـاة، نوافذها تنثر ضوءًا ذهبيًا دافئًا فوق موائد مكدسة بأطباق اللحم الشهية، وسلال من الخبز الطازج، وأكواب شاي يتصاعد منها البخار برائحةٍ معطرة تنساب في الهواء البارد. السيارات الفارهة مصطفّة في خطوط مثالية،

والرجـال بجلاليبهم البيضاء النقية يتمايلون بخطى واثقة، والنسـاء بثيابهن المطرزة بخيوط الذهب ينسلن في أناقة لافتة.

أما في الأسفل، في عمق المجاري، فلم يكن للصبية شيء... سوى بعضهم البعض، قطع طوب بارد بدلًا من الوسائد، خِرق بالية بدلًا من البطاطين، وجوع ينهشـهم دون توقف طوال الليل. ومع ذلك، وسط هذا التهميش، كانت العتمة تمنحهم نوعًا من الأمان المقلوب، أمان من عالم لفظهم ولم يرغب يومًا في رؤيتهم.

في هذا العالم السفلي، كُتبت القوانين على هيئة ندوب، وهُمست في أوامر مختصرة. كان مجاهد هو السيد، الأكبر، الأقوى، كلمته القاسية تقـرر من يـأكل ومن يتضور جوعًـا. تعلّم آدم سريعًـا أن القتال من أجل الطعام مقامرة قاتلة، معركة قد تنتهي بالدم والخسارة.

في إحدى الليالي الرطبة، وصل حسـن وهو ممسـك بثمرة مانجو مسروقـة، قشرتهـا ممزقـة، وعصارتهـا اللزجـة تسـيل عـلى أصابعه المتسـخة. انجذب الفتيـة نحوها كضباعٍ جائعة تدور حول فريسـة، شكّلوا حلقة مشدودة حوله، عيونهم تلمع بتوقٍ يائس، وأجسادهم مشدودة كضباع على وشك الانقضاض.

«منو اللقاها؟»

قالها مجاهد، صوته شق الهواء المشحون.

تردد حسن، ولو لجزءٍ من الثانية.

وكان ذلك كافيًا.

انتزع مجاهد المانجو، أخذ قضمة شرهة، ثم قذف الباقي إلى أيدي الآخرين المتلهفة.

وفي لحظة، انفجرت الفوضى، أيادٍ تتخبط، أجساد تتدافع، قبضات تتصادم. وسط الضوضاء، تمكّن آدم من انتزاع قطعة لزجة من المانجو، طعمها مزيج خاطف من الحلاوة والحرمان، ذاب على لسانه قبل أن يدركه تمامًا.

لكن هكذا تسير الحياة هنا.

لاحقًا، وهو مستلقٍ على الجدار البارد الرطب للأنفاق، ترك آدم عينيه تتجولان في السطوح الخشنة المملوءة بالخدوش والرسوم المتآكلة. أشعة ضوءٍ خافتة تسللت من الشقوق أعلاه، كل شعاع منها بدا كنجمةٍ بعيدة في مجرّة لا تخصه، عوالم لا تنتمي إليه. تسلّل إلى ذهنه سؤال عابر:

«كيف سيكون الأمر لو شعر برقة سريرٍ حقيقي تحت رأسه؟ أو أكل وجبة دون أن يُقاتل على كل قضمة؟ لو عاش لحظةً يراه فيها أحد، يراه فعلًا، لا ككلبٍ ضال يُطرد بالحجارة».

مجاهد يقف فوق صبي أصغر، في يده رغيف خبز نقبه من «كوشة» سوق الخرطوم ٢.

«تأكل قبلي؟»

صفعة حادة.

الرغيف يسقط في الوحل.

«قل شكرًا».

«شكرًا، يا مجاهد».

ضحكة، عالية، ممتدة.

المجاري ترددها معه.

آدم يدير وجهه.

لقد كان ذلك الصبي من قبل.

لكنه تعلم.

ثم أخذوا يشمون محتوى علبة السيليسيون، الشيء الوحيد الذي يشترونه من سيد العجلاتي. يشربون من «السبيل» في آخر السوق، ويقتاتون مما تأتي به كوشة سوق الخرطوم ٢ من بقايا طعام لا تصلح حتى «كرتة» للكلاب.

قطرة ماء وحيدة سقطت على خده، باردة، مثابرة، مسحها بظهر يده الخشنة. فوقه، كانت المدينة تنبض بالضوء والضجيج، بينما في الأسفل، بقي الفتية منكمشين في استسلام، أضلاعهم بارزة، وبطونهم الخاوية تردد صدى العتمة.

أغمض عينيه. دوي الرعد يتسلل من البعيد.

مـع بزوغ الفجر، كان الحر قد اخترق كل مسـام جسـده. حبات العرق تسـيل على وجهه، تلسـع عينيه، وكل خطوة تشعل ألمًا خافتًا في قدميـه المتقرحتـين. كانت معدته تنقبض على نفسـها. ومع ذلك، مـضى نحو التقاطع المزدحم، حيث تصطف السـيارات عند إشـارة المـرور، محركاتهـا تهدر في الهواء المشـبع برائحة البنزيـن الحادة. هذه فرصته العابرة.

بيديـن مرتجفتين، مشـققتين، سـحب خرقة متسـخة مـن جلبابه الممـزق، واندفـع نحو إحدى السـيارات. بسرعة، بل بيأس، مسـح زجاجها الأمامي قبل أن يصرخ أحدهم.

انخفض الزجاج بصوتٍ آلي.

«ابعد من العربية، يا شماسي!»

صرخ السائق.

تراجـع آدم، رافعًـا يديه كمن يستسـلم. وقبـل أن ينبس بكلمة، ارتطم قرش معدني على الإسفلت.

لم يُرمَ في يده. بل قُذف إلى الأرض.

لم ينظر السائق نحوه وهو يرفع النافذة.

حدّق آدم في القطعة المعدنية، حلقه مشـدود بمرارة. لكنه ابتلعها مع ريقه. انحنى والتقطها.

خلفه، أصوات ضحكٍ مكتوم.

«من وين بيجونا الكلاب الضالة دي؟»

تحولت الإشـارة إلى الأخضر. انطلقت السيارات. واستمر العالم في سيره.

مسح وجهه بكمّ جلبابه البالي.

الجوع لم يذهب.

الجوع لا يذهب أبدًا.

أصوات تنادي باسمه.

«آدم»

لم يعد آدم،

لم يعد أحدًا.

يواصل السير.

الطوفان سيأخذه في المرة القادمة.

الطوفان سيكون الأخير.

(العشاء الأخير)

في بيت طيني صغير يلتقط أنفاس الريح على أطراف القرية، كان عمّ إدريس يُعيد طقوسه القديمة كل مساء كأنّ الزمن توقف عند لحظة ماضية. بدأ بفرد حصيرٍ قديم، نسجته أربع أيادٍ مرتعشة بالحب والامتنان من سعف النخل، في أيامٍ خوالي كنّ رغم الفقر نضرات.

بحركةٍ بطيئة ومدروسة، التقط من طرف (التكل)، الذي اعتاد منذ ثلاثين عامًا، الصحون النحاسية، كل واحدة منها تحمل آثار الزمن والذكرى. كان يمسحها برفق باستخدام طرف جلبابه الأبيض الذي بات شاحب اللون مع الأيام، ثم يعيد ترتيبها بشكل دقيق على الحصير كما لو كان يرسم لوحات فنية تحت ضوء القمر الخافت.

لم تكن مائدة عمّ إدريس تعجّ بصحبة أحد، لكنّه لم يشعر بالوحدة؛ فقد كان يخاطب بالهمس صوت زوجته الراحلة، علوية، وكأنّ حضورها منبعث في نسمات الليل. بصوت مرتعش من حنين، كان يقول:

«الليلة، عملت لك قراصة بحرارة القلوب، وطبخت لك بامية

مفروكة بالطريقة اللي تحبيها، لكن بدون تسبيكة زائدة... دايمًا تقولي كتير الزيت يفسد طعم المفاريك».

وفي تلك الكلمات تبرز تفاصيل الأيام الجميلة التي جمعتهما، حينما كانت نكهة الطعام ترتبط بضحكها وعبير المحبة.

بعد أن أنهى حديثه مع الذكرى، جلس مرة أخرى على الحصير المهترئ، ووضع قدح الروب بالترتيب الدقيق أمام المكان المخصص له، ثم أخذ (القربة)، ذلك الوعاء الذي لا يحلو الماء بغيره، والذي علّقه على جذع شجرة عجوز حينما كانا شابين مليئين بالأحلام، وسكب الماء البارد منه في القدح بصوت يشبه نغمات القرون التي تهمس بأسرار الماضي.

كان هذا المشهد من ليالٍ كأنها مأخوذة من قصص الأساطير القديمة، حيث كان الزمن يفصل بين الماضي والحاضر بسطر من حب إيماني عميق.

ورغم ما يقوله أهل القرية عن أن إدريس فقد عقله بعد رحيل علوية، كان واضحًا أن حضوره الذهني لم يفتر يومًا. بل كان يعيش في عالمٍ آخر، حيث كل تفصيلة في التكل وكل حركة يد تعيد ترتيب الصحونٍ، تحمل رمزية من الذكريات، وكل همسة له تبعث في الهواء عبق المحبة الغابرة.

تلك الليلة التي رحلت فيها علوية، عندما انقطع النفس عن

صدرها، هي وجنينها، ولم تجد معها رقية تحمل الدواء، ولا محاية شيخ، ولا دعاء إدريس المرتبك.

بيدين مرتعشتين، دفنها إدريس في رواق من صمتٍ مدوّن، وعاد إلى بيتهم الصغير، ووضع حاجياتها المحببة في مكانها المعتاد، كأنه يرغب في إرجاع الزمن إلى حاله الذي كان مليئًا بالأمل.

استمر أهل القرية في مراقبة طقوسه الغريبة؛ كان الأطفال يتسللون بخفوت أمام البيت وهم يهمسون:

«عم إدريس قاعد مع شبح!»

أما النساء فكن يتجنبن ملامح وجهه الحزين في السوق، ورغم بعض الرجال الذين كانوا يلقون عليه السلام بنظرات مملوءة بالتوجس، إلا أن قلوبًا نابضة بالحنين كانت تلين عند رؤيته وهو ينفخ برفق على طبقها، كما لو كان يحاول أن يستدعي قطعة من روحها لتطبعها في لمسته قبل أن يضعها على المائدة.

وفي أحد الأيام، اقترب منه إمام المسجد بوجهٍ مغموم، قائلًا:

«يا عم إدريس، دا شرك! إنت تشارك الأكل مع ميتة، والعياذ بالله!»

فنظر إليه إدريس بهدوء بالٍ، ثم رد بصوتٍ هادئٍ يحمل أسرار قلبه:

«ما هو الغريب في أن يتناول الرجل الأكل مع أهله في غبطة وامتنان؟»

نظر إليه الإمام بتوجس ومضى إلى غير رجعة.

وفي ليلةٍ كان فيها القمر ناعمًا كالحليب الطازج يخيم على الأفق، رفع إدريس يده المتهالكة نحو الفضاء، متحدثًا مع الهواء وكأنها رسالة حب صامتة:

«يا علوية، تذكري يوم سافرت إلى مروي؟ وكيف قضيت أسبوعًا وحدك، تضحكين وتبكين في آن واحد عند رجوعك؟»

فتناثر ضحكٌ خافت من قلبه الحزين، بينما حدق بعينيه في قدح الروب الذي بقي كما هو، لا يُفتح ولا يُشرب منه، رمزًا لروحٍ معلّقة بين الماضي والحاضر.

مع حلول موسم الحصاد، كان إدريس يقدّم نصيبه من القمح إلى بيت أخته بابتسامة مثقلة بالذكريات، قائلًا:

«علوية ما كانت تحب القمح الجديد... دايمًا تقول إنه يؤذي المعدة».

وفي أيام الأعياد، كان يشتري ثوبًا أبيض جديدًا ويضعه برفق على طرف السرير المهترئ، ينظر إليه كمن ينتظر قدومها.

لكن مع اقتراب الشتاء الأخير، مرض إدريس، ولم يعد قادرًا على المشي نحو السوق الذي كان يعج بالحياة. ومع ذلك، أصرّ على إعداد عشاء علوية بنفسه.

طلب من الجيران مساعدته على تقطيع البصل، وعندما سأله

أحدهم بقلق:

«عم إدريس، لمن تطبخ الليلة؟»

أجابه بابتسامة حالمة:

«أنا اليوم ضيف، وعلوية هي المعذبة في الطبيخ».

في صباح اليوم التالي، مرّ الأطفال من أمام البيت ولم يجدوا صوت القدح، ولا دخان البامية المفروكة، كأن الليل قد سرق أنفاسه الأخيرة.

دخل الجيران فوجدوا إدريس نائمًا على جانبه، وابتسامة حالمة ترتسم على وجهه، ويده تمسك بطرف الثوب الأبيض الذي اشتراه لعلوية منذ عشر سنين.

وعلى الحصير، كان قدح الروب ما يزال ممتلئًا، وكأنّه وعد لم يُنفذ، ولم يشرب منه أحد.

في صمت عميق، دفنوه، ودار الحديث بين الناس:

«المجانين في نعيم...»

لكن فتاة صغيرة كانت تمر من هناك كل يوم، بكلمات من براءةٍ لم تلوثها الأيام، تقول:

«ما كان مجنون... كان يحب امرأة بقى معها طوال العمر».

ولم تمضِ الحياة سوى كما تفعل دائمًا: تنسق ذكرياتها وتنثرها عبر الزمن.

وحتى إن نُسي اسمه، فإنّ ليالٍ بعينها، حين تهب نسائم خفيفة عبر الأزقة، يُقسم سكان البيوت الجديدة أن رائحة بامية مفروكة بدون تسبيكة ما زالت تعبق، ناقلةً قصة حبٍ خُلّدت ذكراها.

(مغامرات ود كيشوت في دار الريح)

لم يكن مولدي في قلب تلك القرية الصغيرة، بل كنت ثمرة الدار الكبير، ذلك المعقل العتيق الذي تجري فيه دماء الأسرار التي لا تنفصل. بيت جدنا حمد ود اللمين، الذي كان يضم بين جدرانه سبع عائلات من دماء مترابطة، يعيشون معًا تحت سقف النسب ودفء الجدات. ينامون ويستيقظون، يتنازعون ثم يتصالحون، وكأنهم لوحة تتغير، تلوّنها الأيام بألوان الحنين والصراع مثل الإخوة كارامازوف.

في عطلات الصيف الحارة، كنت أُبعث من المدينة كما تُرسل الرسائل، مغلّفًا برائحة الخرطوم، محمّلًا بأماني الصيف والانتظار. كنت أُلقى وسط صبية الحوش كقطعة سكّر صغيرة مذابة في فم الزمن، تتعلّق بها النظرات الفضولية وسط ضحكات لا توصف.

كان أبناء عمومتي يتجمّعون بأعداد طائلة؛ في كل بيت تجد منهم من خمسة إلى أحد عشر طفلًا، يركضون حفاة فوق طبقة الطين اليابس، كل خطوة منهم تضج بروح النهر، وكأنهم ورثته الأحياء من مياهه المتدفقة.

في اليوم التالي لوصولي، اقترب مني عمر، ذلك الصبي الذي يكبرني بعامين وينظر إلى نفسه كجنرال يقود سِرب الحمير. قال

بصوته المفعم بالثقة:

– هيا، تعال معنا إلى السوق... سنشتري الدقيق.

وبينما كنت أتسلّل خلف الحمار الرمادي كمراقب خفي، سألت بدهشة:

– أنا؟ هل يجب أن أركب هذا؟

فانفجرت ضحكاتهم كضحكات القرويين حين يُسألون سؤالًا يبدو تافهًا، ثم رمى أحدهم نحوي عصًا صغيرة، رقيقة كعود قصب خفيف. وقال عمر وهو يصفّر بنغمته الواعدة:

– قِف بجانبه بسكون، ودعه يتعود عليك. ضع عنقه بين خاصرتك ويدك اليمنى.

لم تكن رحلة صعودي للحمار سهلة. كانت محاولات مضنية تملؤها الرهبة والجدّ والتحدّي. أخبروني بابتسامة هادئة:

– فقط قل له: (عرد) ...ودع الباقي على الله.

وبلمسة من الكلمة السحرية، عرد، انطلق الحمار كما لو أن قوّة خفية قد لمسته؛ (فنجط) ومال يمنةً ويسارًا في رقصة مرتجلة على إيقاع لا يسمعه إلا قلبه، أو لعلّه كان مشوّشًا أمام ابن المدينة الجاهل ببيئة القرية.

تمايلتُ على ظهره، وتمسّكت بعنقه بحنانٍ وخوفٍ معًا، حتى احكمت جلستي كما رأيتهم يفعلون بثقة.

وصلنا إلى السوق بعد معارك طريفة مع الحمير المتعثّرة ومطبات ترابية لم تُدرجها سجلات هيئة الطرق. الأسواق الملونة احتضنتنا برائحة التوابل وبريق البضائع، حيث اشترينا الدقيق والزيت والملح وأشياء أخرى تضيع تفاصيلها في زحمة الذاكرة، وربطنا الأكياس بحبال الجوالات القديمة التي كانت تثقل ظهور الحمير بعبق الماضي.

لكن في طريق العودة، حدثت الواقعة التي ستظل محفورة في ذاكرتنا. تحت شجرة (كتر) عتيقة، كان ثعبان مستلقيًا كما لو كان يتحضّر لقيلولة طويلة، ملتفًا على نفسه بدقّة فنان يرسم منحنيات الهدوء. تجمَّد الزمان حين شهق عمر، وقفز محمد من على حماره بخفّة الريش، بينما تجمّدتُ أنا، لا من شجاعة، بل لأن الرعب سكن في جسدي وأغلق منافذ الحركة كما تُغلق أبواب القصر عند الفجر.

هتف أحدهم:

– هيا نذهب ونُحضر عمّ عوضين... هذا لا بد أن يُقتل بالفأس.

تركنا الأحمال والحمير مربوطة، وانطلقت أقدامنا فوق التراب الملتصق بالأحلام، والغبار خلفنا يتبع خطواتنا كآية تُرددها الرياح، كأننا أنبياء الهلع.

في القرية التي تتحوّل عند ظهور الثعبان إلى لوحة ساكنة، تتوقّف الساعة وتنطفئ الضوضاء. تنهمر النداءات وتتطاير العصي في

الأرجـاء، ويركض الرجال حفاة الهويـة، بينما تهتف امرأة من خلف جدار قديم:

- اضربوا رأسه... لا تدعوه يقترب من البيوت!

وعندمـا وصلنـا إلى عمّ عوضين، جلس كما لو كان شـيخ طريقة يحمل عبء السـنين. مسـح سُـبّحته التي تلتف حـول ركبته، وقال ببطء كأنه يفتح صفحة من كتاب قديم:

- كتر؟ هذا بالتأكيد (أبو السيور)... هيا أروني مكانه.

قادنـا في موكب صغير، ونحن نحمل حجارة صغيرة لا تُسـاوي شـيئًا في مواجهـة الثعبـان المتربص، نترقّـب بعيون قلقـة ظهوره كما يُترقّب الجن في حكايات زمان بعيد.

لكن حين وصلنا، لم نجده. كأنه انفلت من قيود الزمن. أو لعلّه لم يكن سوى خوفنا متجسّدًا، قد تبخّر حين رأينا الشمس تُمالئنا بالصمت.

بقيت الحمير، لا تبارح مكانها، كأنها تحفظ سر الرحلة.

تأمّل عمر حماره بلطف وقال:

- حسنًا... دعونا نغسل أقدامنا في النهر ثم نعود.

لم يكـن النهر بحرًا، بـل النيل العظيم، يحتضـن القرية كأمّ حنون تحتضن طفلها.

سـحبنا أنفسـنا إلى الضفة، ربطنا الحمير بجـذوع النخل العتيقة، وخلعنا ملابسنا ببطء كأننا ننزع عنّا قلق المدينة، ثم غطسنا في الماء.

كان للماء رائحة لا تُوصف؛ مزيج من طمي الأنهار ورائحة جذور الأشجار، وكأن للنهر ذاكرة قديمة تُداعب حواسّنا. سبح عمر أولًا، ثم قفز محمد، ولحق بي إيقاع ضحكاتهم، حتى صرت أجاهد كي لا أغرق وسط بهجتهم المتدفّقة.

بلّلنا رؤوسنا، ورششنا بعضنا بالماء، ثم تمدّدنا على الرمل، نضحك كأولئك الذين استولوا على قطعة من الزمن.

لكن الزمن، رغم كل محاولاتنا، لا يُسرَق.

في طريق العودة، صادفنا أولادًا يلعبون الكرة قرب الطاحونة القديمة. الشمس كانت تخفت، والهواء مثقل وكأن العالم قد تعب معنا. الحمير بدأت ترفس الأرض بإعياء.

همسنا:

- فقط شوط واحد ثم نعود.

تحول ذلك الشوط إلى مباراة، ثم إلى خلاف عالٍ، ثم إلى صُراخ، ثم إلى ضحك... وأخيرًا، سجّل عمر هدفًا جعلنا نقفز ضاحكين كما لو أن تلك اللحظة رقصة خلّاقة نستبد بها عن كل الهموم.

طغت تلك اللحظة على كل شيء. نسينا فيها الدقيق، والملح، والزيت، والبصل.

نسينا الحوش بأركانه التي احتضنتنا.

ونسينا أن خالاتنا كنّ يترقبن المؤونة لإعداد عشاءٍ يُشبع الجياع.

عندمـا عدنا، كانت الوجوه متجهّمة كأنها قوالب طين متشـققة. بدأ عم الطيب يصرخ:

– أين كنتم؟! الزيت تأخر يومين حتى يصل إلى السوق!

وسألت خالتي أم الحسن بقلق:

– هل جلبتم الدقيق من المطحن؟ أم من القضارف؟

وتمتم جدي بصوت خافت، كأنه آخر نذر من نذور المطر:

– هذا آخر يوم تذهبون فيه إلى السوق وحدكم... في المرة القادمة سأذهب أنا شخصيًا.

وقفنـا كجنـود متهالكين، وتركنا الحمير تنظر إلينا بشـماتة خفيّة، كأنها تعلم سر الظلام الذي عشناه.

لكن في الليل، حـين هدأت الأصوات وتمددنا على الحصير تحت القمر، تسلّلت نسمات النيل إلى الحوش، فسمعنا عمر يهمس:

– في المرة القادمة، سنسـبح إلى الجزيـرة، هناك حيث يزرع الآباء البطيخ والبرسيم واللوبيا.

وضحكنـا معًا حتـى امتزجـت ضحكاتنا بصوت الليـل، وكأن القرية كلها شاركتنا نشوة تلك اللحظة.

في صيـفٍ تلـو الآخـر، نمت في داخـلي جرأة جديـدة. أصبحت أقـل رهبة وأكثر اعتيادًا على تقلبات الطريـق. أركب الحمار كفارس مغـوار، أتحدّى الحفـر، وأربط الأكيـاس بإحكام كما يربـط البحّارة

حبال قواربهم في عاصفة.

وكنت أحيانًا، حين يغلبني الحنين، أحلم بليلى بنت عمي.

واقفة هناك، تتأمل قلادة فضية، وشعرها الأسود ينسدل على كتفيها مثل ليل طويل. لم أتوقع أن ترتجف يداي هكذا حين رأيتها، ولم أتوقع أن تدور الأرض من تحتي عندما التقت عيناي بعينيها.

لا أختطفها، بل أركض معها فوق ظهر حمار نحو الخرطوم، لنعيش في عالمٍ تتداخل فيه الليالي مع الأيام، وننجب أطفالًا يحملون في عيونهم بريقَ الأمل الذي لا ينتهي.

تمرّ السنوات وتبهت زياراتي إلى القرية. أعود إليها بعد سبع سنين، لأجد ليلى قد ارتدت ثوب زفافها ودخلت بيت عدلها. أما أنا، فلا أزال أركض بجنون وراء الكرة أحيانًا، أو أندفع بسرعة فائقة على ظهر حمار رمادي، كأنني أخوض معركة شرسة ضد طواحين هواء خفية لا ترحم.

(خيارات صامتة)

حلَّ ديسمبر على ود مدني بدفء غير متوقَّع، بدا كأنما مخملًا من زمنٍ رحيب يحتضن قلب المدينة، يحمل بين طياته عبق الذكريات الهادئة وهمسات الأيام الخوالي.

تسلَّلت إشراقة ذلك الدفء إلى جدران الحاضر المظلم، وكأنها نغمة خافتة تذكِّر بأن الحياة ما زالت تخفق رغم قسوة التجارب. وعلى الضفاف، اندفع النيل الأزرق كعاشق وفيّ، يهمس بأسرار الزمن لحبيبته القديمة بلغةٍ لا يفهمها إلا من غاص في سطور الماضي المدوية بالصمت.

في زقاق مهجور بداخل بيت عتيق يحمل وجوهَ الأزمنة، جلست نجوى على كرسيٍ مُهترئ تضع أمامها مرآة قديمة تكشف عن وجه لم تُنهكه سنوات اللوم والحزن، رغم أن الأيام خطّت على خديه آثارها الثابتة. كان ضوء الشموع المرتجف يلمع على وجنتيها كراقصٍ خجول يحكي قصة أمٍ مضت، يسرد تفاصيل ألمٍ وأملٍ مخبوء في زوايا وجهها.

مرّت ثلاث سنوات منذما ودّعت زوجها بعيون محملة بالخوف والرجاء، حينما انطلق باحثًا في رحاب السعودية عن فتات فرص

تضيء لهم مسالك المستقبل. ولم تخلُ الأيام إلا من صوتٍ مرتعش خلف تشويش الهاتف، يخبرها:

«سأعود قريبًا، حبيبتي. سأأخذك أنت وطارق وأمك إلى برّ الأمان».

كانت كلماته تنساب كغطاء دافئ خفيف، معلقة في هواء الذاكرة واهية كهمس بين الرجاء وأحزان الواقع.

على سطح الطاولة العتيقة، كانت أدوات التجميل مرتبة كقرابين من أيامٍ مضت: زجاجة كريم تفتيح البشرة تنضح برائحة كيميائية خانقة، وأنبوب من صبغة شعر أسود كالليل، ووعاء حناء يفوح منه عطر التراب المُختلط ببهارات الأسواق القديمة، ومبخرة صغيرة تعبق برائحة خشب الصندل، جميعها تنتظر في سكونٍ متأهب لتصنع سحرها قبل عودة الحبيب المنتظر. لكن الثوب المطرز المتدلّي من ظهر الكرسي بخيوطه المتآكلة يذكّرها بقميص زفافٍ مؤجَّل أو كفن أنيق يخفي بين طياته قصة انتظارٍ مؤلم.

وفي خضم تأملاتها، تخيّلت اللقاء المنتظر؛ تقف عند الباب بطلّتها متألقة بثوبها الزاهي رغم طبقات الغبار، تبتسم ابتسامة الأمل حين تعانق صغيرها طارق بيد وزوجها باليد الأخرى وتهمس له بعبير الإيمان:

«لقد انتظرناك».

لكنهـا علمـت جيـدًا أن المدينـة، بـكل زواياها القديمـة، تحمل أسرارًا أعمق من وعود الأحلام.

لم تكن الهمسات المتداولة مجرد شائعات عابرة، بل كانت نبوءات سكنت أركان الأزقة، تتردد بصدى خافت لا يعرف سكونًا.

عـلى الضفة المقابلـة، تمركـز الجنجويد بحـذر، في حين خضعت الخرطوم وأم درمان لوقع السـقوط المبكر، لكن ود مدني بقيت رمزًا للثبات، تناضل على صمودها. وفي شوارع المدينة المتعبة كان الجيش يسـتعرض قواته وسـط هتافات المواطنين المفعمة بالمزيج من الحزن والفخر، مطاردًا الجنجويد عـبر الجسر الوحيد المؤدي نحو الشرق، محتفلًا بنصرٍ معلن رغم الآلام.

وفي لحظة فارقة، انسـحب الجيش بسرعة متهـورة، بينما ارتفعت أصـوات الجنـود بالهتـاف «الله أكبر» بصيحـاتٍ تتزلزل بـين الرجاء العميق والخوف الجارف.

في الغرفـةٍ الأخرى، كان طـارق نائمًا بعمق الطفولة، ملتفًا بدفء جدتـه وكأن دفئها يسـكن أحلامه، فيما كانت عيـون نجوى تتوقف عليـه في كل لحظـة لتتأكـد أن بـراءة طفولته، وإن وقفـت على حافة الهاوية، ما زالت تنبض في صمت الليل.

اقتحمـت المدينـة هتافات «الله أكـبر» المدوية من فـم الجنجويد، وبدأت عصابات اللصوص تُنهب الأسـواق المهجورة، تُفرغها من

أثواب الماضي، وسط فوضى تحمل التكبيرات بغير علم.

وفي ضاحيـة المدينة، اندفع الجنجويد إلى البيوت دون اسـتئذان، تعيث فسادًا سـاطعًا في أعراض الأمان، متدفقة عبر الجسر كطوفان مدمر يترك خلفه أثر الفوضى.

ارتفعت صرخـات الفتيات اللاتي عرفن مصيرهن المحتوم، بينما تضـاءل نحيب الرجال حتى بدا وكأنه يصل إلى عنان السـماء حاملًا أنين وجراح الزمن.

عـادت نجوى إلى مرآتها، وهنـاك نظرت إلى عيني امرأة لم تنكسر تحت وطأة السنين، امرأة لم تعد ضحيةً بلا اختيار بل أصبحت قرارًا وإرادة. امرأةٍ أرهقها الزمن دون أن يخضعها، حاملةً في قلبها شظايا حـبٍ ما زال يتوهج رغـم العواصف وكرامةً لن تـذرف، مهما طال الثمن.

في الخارج، كانت المدينـة تئن بأصوات صرخاتٍ ملأتها الآهات وخطـى ثقيلـة تهمـس بالغموض وهي تقـترب من عبـاب الظلام، كأنها تنذر بقدوم لحظة فاصلة.

تمـدُّ يدها المرتجفـة نحو زجاجـة الصبغة، التي تحمـل في قراراتها سرَّ التغيـير ووعـد اللقـاء. ارتعشـت أناملها حينما لمسـت سـطحها الزجاجي، وتوقفت للحظة متأملةً ثم رفعت الغطاء ببطء مصيري. ارتفع من داخلها عبق حاد، مزيجٌ بين رائحة موت قديم وبذرة ولادة

جديدة، إذ تجاذبت الزجاجة شفتاها في لقاءٍ صامت، وسقطت دمعة كثيفة ببطء لتختلط مع سواد الليل.

فجأةً، دويّ طرق عنيف على الباب، وارتفعت خطوات تسحق تراب الشوارع، وكأن صوتًا أو ظلًّا أعاد يسير بثقةٍ مطلقة على ركام الخوف.

ارتجفت شعلة الشمعة قبيل أن تنصهر في رقصة أخيرة من النور قبل أن تنطفئ تمامًا، معلنةً هدوء الليل العميق.

(صندوق خلف اللّه ود البشير)

يقف بيت العم خلف الله ود البشير وحيدًا عند نهاية الطرف الجنوبي من القرية، يحمل عبق حقبةٍ من البساطة والصفاء. أمامه الحقول الواسعة تلامس زرقة السماء في لوحةٍ بديعة صامتة، فيما يُطلّ من ثلاث جهات على فراغٍ شاسع، يستقبل الشمس كل يوم، ثم يودّعها ببطء، كأنما يمسح على كتف النهار قبل أن تنثر ظلالها على البيوت المتراصة.

حمل قلب العم خلف الله أسرارًا لا يعرفها إلا التراب الذي يضم أجدادنا الذين ولّوا، وعاش حياته كأنها نهرٌ داخلي لا يفيض على أحد. لم يكترث لمغريات الحياة، ولا ركض وراء أسرار الناس التي تفشيها وشوشات القرية الهامسة، بل آثر الصمت، وترك قلبه يروي عبق الماضي في كل زاويةٍ من زوايا بيته المتواضع. كان يُعيد للحائط القديم بريقه حين يطليه بطين اللازب وروث البهائم، يصنع جدرانًا سميكة كأنها انعكاس لإرادةٍ لا تعرف الانحناء، وعزلةٍ لا تهرب من الضوء، لكنها لا تسعى إليه.

في عينيه بريقُ حزنٍ مقيم، لم يُرَ يومًا وهو يبكي، بل كان يحني رأسه في صمت. يظهر فجأة في المناسبات، يوزّع نظراته على الحاضرين كأنه يفرزهم بعينيه، ثم يعود إلى وحدته دون أن يُطلق

كلمـة أو يترك أثرًا لحديث. قيل إنه كان شـاعرًا في شـبابه، وآخرون قالوا إنه قرأ كثيرًا حتى نضجت بصيرته وتكثّف صمته. لم يكن أحد يعرفـه حـق اليقين، وربما لم يشـأ أحـد أن يعرف عنه الكثـير احترامًا لعزلته وزهده فيما حوله.

ودّع العم خلف الله الدنيا بلا صخب. لم يُسمع نواح النساء، ولا نزلـت دمعات الرجال، بل كان غيابه كحضوره: هادئًا، متينًا، يشـبه حفيف شـجرةٍ تُقلّم نفسـها بنفسـها. جلس الحاج مرزوق في زاوية المسـجد بعد وفاتـه، يحدّق في البقعـة التي كان يُصـلّي فيها، ويهمس كأنما يُكلّم الغيب:

«لم يكن خلف الله ود البشير بسيطًا... لقد كان نسيجًا وحده».

كلماته حملت رائحة الأسرار وأحوال الرجال.

بعـد انتهاء العزاء القصـير، دخلنا بيته، مخزن الذكريات المنسـية. لم نجـد فيه إلا عنقريبًا متهالكًا، ومسـبحةً منفرطة، وسـجادة صلاة باهتة. وشيئًا آخر في ركن الغرفة بدا متناقضًا مع كل شيء.

صندوق خشـبي صغير، مطـلي بلون أحمر باهـت، مربوط بحبلٍ من ليف.

كان الصندوق أقرب إلى قلبٍ مغلق، يئن تحته كل ما لم يُقَل.

فتحناه بحذر، كمن يفتح بوابةً لزمنٍ آخر.

لم نجد فيه ذهبًا ولا أوراقًا رسمية، بل أشياء تُشبه الهمسات:

صورة باهتة لامرأةٍ خمرية اللون تحمل نصف ابتسامة،

مشط خشبي تصدّعت أسنانه،

ريشة طائرٍ مربوطة بخيطٍ أحمر،

حجر صغير منقوش عليه بخطٍ مائل: «سامحيني يا بهية»،

ورقة ممزقة كُتب فيها: «الزمن لا يعود إلى الوراء. إذا لم تتبع حلمك، فإنه سيطاردك إلى الأبد».

جلسنا أمام الصندوق في صمتٍ ثقيل، وكأننا نجلس عند قبرٍ ثانٍ. كل ركنٍ فيه كان له صوت، وكل صوتٍ كان يقول شيئًا لم نكن نعرف كيف نترجمه.

قال عمي موسى بصوتٍ متردد:

«من هي بهية؟»

فابتسمت خالتي آسيا، قائلةً:

«يمكن تكون واحدة حبّها من زمن بعيد... أبان دراسته في الأزهر الشريف».

ربما كانت الحكاية كلها مجرّد حجر...

لكنه حجرٌ أثقل من الكلام.

لم نضحك طويلًا. سرى فينا شعورٌ غريب، كأننا نحن من كُتب علينا أن نُكمل الرسالة.

وفي اليوم التالي، توافدت أشياء غريبة:

صورة قديمة لرجل ميت،

وردة بلا ساق،

وقصيدة بلا توقيع.

وهكذا، صار الصندوق دفتر اعتذار جماعي.

يـزوره النـاس عند المغرب، يجلسـون قليـلًا، يضعون شـيئًا، ثم يرحلون.

حتى الأطفال صاروا يقولون بصوتٍ خافت:

«صندوق عمّنا خلف الله... يحفظ الأسرار».

وفي الذكرى الأولى لرحيله، اجتمعنا لنقرأ ما تراكم في داخله من رسائل، ذكريات، أشياء صغيرة تحمل الحزن، والبوح، والمغفرة.

كل قطعة كانت تنبض.

كل كلمة كانت تقول شيئًا لم يُقال في حينه.

وحين غابت الشمس، بقيت الأسئلة في الهواء.

لم يكن الغروب ختامًا،

بل وعدًا جديدًا...

أن الأسرار لا تموت،

بل تنتظر من يُصغي لها.

(الجبل الذي تأخّر في الانهيار)

لم تكن حبيبة بنت حاج التوم غريبة عن الأرض، بل كانت جزءًا أصيلًا منها، هادئة كالسكون الذي يسبق العاصفة، صلبة كالصخور، صبورة كأشجار السنط، لا تُظهر ألمها لغيرها.

عاشت حبيبة في بيتٍ طينيّ صغيرٍ يتشبث بسفح الجبل، في إحدى القرى المنسية بناحية المناصير شمال مدينة مروي، هناك حيث يُقام السدّ الكبير. هنالك، صارت حبيبة قطعةً من الأرض، كأنها نبتت منها كنخلةٍ سامقة. هنالك دَفنت زوجها في شتاءٍ مضى، وهنالك ودّعت أولادها الثلاثة، الذين أخذهم المرض واحدًا تلو الآخر، كأنّ القدر أراد أن يختبر صبرها ويربطها إلى الأبد بالأرض الرؤوم.

وهكذا بقيت حبيبة وحيدةً بين الأنقاض والصمت. لم تنزل دمعةٌ من عينيها، ولم تترك الأرض التي كانت تعرف كلّ زاويةٍ منها. وعندما أخذ السدّ في الارتفاع كضيفٍ ثقيل، وجاءت الوفود الحكومية محمّلةً بالخرائط والوعود المعسولة، لم تُعرهم حبيبة أيَّ انتباه.

ثم قالوا: «المياه ستغمر هذه الأرض. عليكم الرحيل قبل أن يأتي الطوفان».

عندها بدأت قوافل القانعين بالتحرّك. حملوا معهم ما يستطيعون حمله: المواشي، القدور، مفارش الصلاة، أسماء البيوت. لكن حبيبة بنت حاج التوم لم تحزم شيئًا. ظلّت باقية عند ضفاف البحيرة، ترفض أن تغادر الأرض التي احتضنت الأحباب. أرضها وبيتها، حيث نام الذين سكنوا القلب قبل أن تحتويهم الأرض الحنون.

معها بقي نفرٌ قليل من الناس. أقاموا على طرف البحيرة، فيما صار يُعرف بـ«من تبقّوا من المناصير». بنوا بيوتهم بالحجارة والطين، وراقبوا الماء وهو يتقدّم، شبرًا شبرًا.

كانت حبيبة تطحن القمح بحجر الرحى، وتخبز «القراصة» على الصاج، وتغلي الشاي على نارٍ هادئة من فروع الطلح، كما كانت تفعل دائمًا. جسدها هزيل، لكن عينيها صلبتان كضلع الجبل.

في موسم الفيضان التالي، ارتفعت المياه قليلًا. ابتلعت الساحة، ثم الحقول، ثم الزريبة، واقترب الماء من البيوت.

في صباح غائم، شوهدت حبيبة تمشي بمحاذاة الجبل، تحمل جرّتها على رأسها. كانت خطواتها واثقة، بطيئة، كأنها تودّع الطريق حجرًا حجرًا.

عند الغروب... لم تَعُد.

فتّشوا عنها. نادى الأطفال باسمها. ركب الرجال القوارب، وجذفوا في كلّ مكان.

لم يعثروا على أثرٍ لها. لا ثوبها الأبيض، ولا جرّتها، ولا أثرًا في الطين.

منذ ذلك الحين، حين تمرّ القوارب قرب ضفاف بحيرة المناصير، يُبطئ الناس المجاذيف دون أن يتّفقوا، ويهمس أحدهم:

«هنا اختفت بت حاج التوم».

أما الجبل، فقد ظلّ صامتًا، ثقيلًا، لا يهتزّ. حتى ذات فجر، حين انهار جزءٌ صغير من سفحه دون صوت...

كأنه تأخّر كثيرًا في البكاء،

أو كأنه كان في حالةٍ من الإنكار.

(الفانوس)

تحت سماءٍ مخملية، في قلب صحراءٍ لا يبدو لها آخر، كانت العتمة تزحف كمدٍّ ثقيلٍ يبتلع كثبان الرمال المتموجة. ومن غصنٍ معقوفٍ فوق شجيرةٍ وحيدة نبتت بعنادٍ في الفراغ، تدلّى فانوسٌ صغير، متحديًا الظلام الموحش. شعلته الصغيرة، وهجٌ أصفر عنيد، تتراقص في هواء الليل البارد، متحديةً ظلمةً شاسعة تزحف نحوه من كل الجهات. وتحت ضوئه المتواضع، انتصبت سبعة أزيارٍ طينية ضخمة، رتبت في نصف دائرة، سطوحها المتهالكة شاهدة على قسوة الشمس، ومع ذلك، احتفظ كلّ واحدٍ منها بماءٍ باردٍ نقيّ، كأنما يختزن سرَّ الحياة ذاتها، كأنفاس النجاة.

وقفت الأزيار كحرّاسٍ متعبين، متأهبين لسقي اللاجئين التائهين، شيوخٌ غائرو المقل، نساءٌ تمسكن بأطراف أثوابهن بارتجاف، وأطفالٌ يضمون ألعابًا باهتة كأحلامهم. كانوا يفرّون من جحيم الحرب، يطاردون صورة كرامةٍ باهتة تتراقص عند الأفق الشمالي.

يومًا بعد يوم، كانت القوافل الموحلة تظهر على المسارات القاحلة، تتوقف لتنهل من برودة الحياة، ثم تمضي بخطى مرهقة في رحلة لا تعرف النهاية. ويومًا بعد يوم، كانت هي تمشي على الأرض

الحارقة لتملأ الأزيار من جديد، بإصرارٍ لا يعرف التراجع، كأنما كلّ قافلة كانت توقظ في قلبها نداء رجاءٍ جديد.

قطعت العشرين كيلومترًا بخطى ثابتة لا تنكسر، دون توقّف، دون تردّد. كلّ خطوةٍ كانت شهادةً صامتة على معنى أن تُكرم كبدًا رطبة، على ثمن الأمل. كلّ قطرة عرق، وكلّ فقاعة بثرةٍ على قدميها العاريتين، لم تكن تُمثّل لها شيئًا أمام نداء الواجب.

بجوارها، سار حمارٌ قويّ، حوافره تقرع الأرض بإيقاعٍ رتيب، يحمل قربًا مملوءة بالماء تتمايل بثقلها مع كلّ خطوة. كانت الشمس تصبّ سعيرها على ظهرها المكشوف، تُهدّد بحرق قدميها وظهرها، تمامًا كما كانت نيران الحرب تلسع الذاكرة. لكنها، رغم كلّ ذلك، كانت تهمس لنفسها:

«لا بأس... حتى لو أنفقتُ كلّ ما أملك على الكيروسين والماء. ربما يُبقي هذا الفانوس الصغير الأمل حيًّا».

وحينما انحدر الغروب إلى ليلٍ كثيف، تحوّل الفانوس الضعيف إلى منارةٍ صغيرة، خلاصٌ هش، نورٌ فضيّ يخترق قماش الليل الداكن. لكن، في ليلةٍ حالكة السواد، بدأ وهج الفانوس يخبو.

غرقت الشجيرة في السكون، تحوّلت إلى ظلٍّ وحيد تحت قبةٍ مرصّعةٍ بالنجوم. الأزيار، التي كانت يومًا تضجّ بالحياة، جفّت على الرمل القاسي، يابسةً كقلوب من ابتلعهم ضجيج الحروب.

ومـن بعيد، ظهـر هدير شـاحنةٍ تخـترق العتمـة؛ أنوارهـا تقطع الأرض اليابسـة بأشعةٍ مرتجفة، تشقّ الصمت. في مقصورتها، أضاء الضـوء الشـاحب وجوهًـا منهكة، شـفاهٌ متشـققة، جبـاهٌ متغضّنة، وعيـونٌ غائرة. أبطأ السـائق، بحث في المكان عـن الوميض المألوف الذي كان دومًا هناك.

لكنه لم يجد سوى ظلامٍ كثيف، ممتدّ، صلب.

ثم..

لاحت ومضةٌ بعيدة في الأفق.

لهبٌ صغير، يتمايل برفقٍ ضدّ الريح. كان بين يدي شـيخٍ عجوز، يداه متشـققتان، لكـن قبضته على الضوء كانت حانية، كأنها تمسـك بحفنـةِ روح. خلفـه، تقدّمت قافلـةٌ صامتة، حميرٌ محمّلـة بقِرَب الماء المملوءة، جلودها مبللة، تتلألأ خافتةً تحت عين القمر الباردة.

واحـدًا تلو الآخـر، وصلوا إلى حيث الشـجيرة الثابتة. في طقسٍ هـادئ، أعادوا مـلء الأزيار من قِرَبهم الصغـيرة، بحركاتٍ رصينة، لا تعرف العجلة، ثم علّقوا الفانوس من جديد، بحذرٍ، وبخشوع.

توهّج الفانوس من جديد.

أضاءت شعلته، خافتةً لكنها حيّة، تهمس في قلب الليل:

«أنا هنا».

لبُرهة، لان التعب على الوجوه، ذاب في دفء الضوء. ثم، بخطى

رزينةٍ مليئة بالسكينة، بدأت القافلة تعود إلى القرية البعيدة. امتدت ظلالهم طويلًا على الرمال الباردة، تتماوج مع زرقة المساء.

فوقهم، تناثرت النجوم كجواهر متلألئة. لكن نجمةً واحدة، عند خطّ الأفق، ظلّت متقدة، ساطعة، لا تهتزّ، مفعمةً بالحب.

ومع اختفاء القافلة في ظلال الليل، وُلد فيهم شعورٌ جديد...

وعدٌ صامت:

أنّه حتى في هذه الأرض القاحلة،

سيبقى الضوء... يدلّ الطريق.

(ياسمينا)

القمر قاربٌ فضيٌّ يطفو برقة فوق بحرٍ من النور الأثيري المتوهّج. في البُعد، لاحت أفعوانيةٌ تصعد في تململ، ثم توغل في هبوطٍ محموم. صرخاتٌ هستيرية مختلطةٌ بضحكاتٍ مفعمة بالبهجة يحملها الأثير.

احتفلنا الليلة بعيد ميلادي الخامس بعد الأربعين في هدوء، بعيدًا عن الشموع والضجيج المعتاد. أخذتني ابنتي إلى مطعم Le Jardin de Montreuil، حيث الأجواء الساحرة، والإضاءة الخافتة التي تضفي سحرًا خاصًا على المكان. وقفتُ أمام المرآة لفترة طويلة الليلة، مدقّقًا في تفاصيل وجهي. خصلاتُ الشيب بدت كنيرانٍ صغيرة تشتعل في مفرقي، وعيناي تبدوان غائرتين، تغرقان في وجهٍ منتفخ يعكس آثار الزمن.

سرحتُ بعيدًا. غاصت روحي المتعبة في محيطٍ لا ينتهي من الشوق والحنين، متجاوزةً عقودًا من الزمن في رحلةٍ صوب الجنوب. طويتُ الجبالَ والسهولَ والبحارَ والصحاري. في مرآة الذاكرة القديمة، شاهدتُ سنواتي تتلاشى بينما أقترب من أم درمان. عيناي تخرجان من سطوة محجريها، تزدادان اتساعًا وخجلًا. جسمي يتضاءل،

وصـوتي يضعف. ثمة صبيٌّ صغـير، لم يكن في أكثر أحلامه جرأةً أن يغمر عينيه سحرُ باريس، مدينة الفن والجمال!

أراني فتـىً في الرابعـة عشرة من عمره، جالسًـا في مكتبة المجلس البريطـاني بأم درمـان، حيث يعبـق المـكان برائحة الكتـب القديمة التـي أحبهـا، أقرأ النسـخة المختصرة لرواية تشـارلز ديكنـز «ديفيد كوبر فيلد»، وأعيد صياغتها فيلمًا سـينمائيًّا في مخيلتي. أمامي، تجلس فتـاةٌ ذات جمالٍ لافت، شـعرها الأسـود يتدلّى على كتفيهـا، وعيناها اللامعتان تركزان على صفحات قصة «جين آير» لشارلوت برونيتي.

تـردّدتُ قليـلًا، ثم جمعتُ شـجاعتي وكسرتُ حاجـز الصمت. تبادلنـا حديثًـا طويـلًا وممتعًا. أمها فرنسـية، وأبوها سـوداني، وهي تمتلك موهبة القراءة بثلاث لغات: العربية، والفرنسية، والإنجليزية. كان حديثُنـا مليئًا بالضحك والقصـص، وبصمتٍ يحكي كلَّ شيء. أدهشـتني بسـعة اطّلاعها وثقافتها، وأسرتني بتلقائيتها وبسـاطتها. وهكـذا، وُلـدت صداقةٌ بُنيت على حبّ الكتب والشـغف بالأدب، واسـتمر اللقاء كل مسـاء، وصباحاتُ الجمعة التي كانت تأتي كأنها دهر، ويمضي اللقاء كبرقٍ خاطف.

ابتسمت لي ابتسامةً دافئة، تشبه شروق الشمس في صباحٍ ربيعي، وقالت بصوتٍ هادئ:

«هل ترسم؟»

كان سؤالُها بردًا وسلامًا على قلبي، كنسيمٍ عليل يمرّ في يومٍ صيفيٍّ حار. الرسم هوايتي المفضلة بعد القراءة. كنتُ أقضي ساعاتٍ طويلة في التأمل والتخيّل، مستعينًا بريشتي وألواني لنقل تلك العوالم الخيالية إلى الورق. تذكّرتُ كيف كنتُ أمضي الساعات في غرفتي، محاطًا بالكتب واللوحات، مستلهمًا من قصص الأبطال والرحلات، محاولًا أن أترجم ما أقرأه إلى لوحاتٍ نابضة بالحياة.

أخذتْ هي ورقةً بيضاء، ورسمتْ نهرًا، أضفتُ أنا أشجارًا على الضفّة الأخرى. أضافتْ قاربًا صغيرًا، وبنيتُ له شراعًا. صبيٌّ ذو رأسٍ كبير وجسمٍ صغير اعتلى القارب، ورافقته فتاةٌ خمريةُ اللون، دقيقةُ الملامح، تمسك بيده... نظرتْ إليَّ بسعادةٍ غامرة، ثم انحنتْ على الورقة لتُطلق سربًا من الطيور. رسمتُ أنا قمرًا مبتهجًا يسكب أشعتَه الفضية على الحبيبين الصغيرين... القاربُ الحالم ينزلق بهدوء مع مجرى النيل نحو الشمال! شعرتُ وكأنني «الزين» الذي لم يسع قلبه الصغير حُبّ عزّة، فصاح بملء فمه:

«يا ناس الحِلّة، عوّك، الزين مقتول في مكتبة المجلس البريطاني!»

تحوّل فرحي إلى هرجلة. وضع أمينُ المكتبة سبابته فوق شفتيه، مشيرًا إليّ بالتزام الصمت، وعدتُ أنا إلى رشدي.

شيءٌ ما في صدري يرقص فرحًا. المذياعُ يبثّ لحنًا شجيًّا يملأ الجو بالدفء والحنان. كان ذلك اليوم البارد يحمل سحرًا خاصًا في طيّاته.

«يا أول حب، وآخر حب...»

كانت الكلمات تخرج بصوتٍ خافت، لكنها كانت تحمل في طيّاتها شغفًا وحنينًا لا يوصف.

أسدلت ليلة الجمعة ستارها ببطء، وكأنها ستارة مسرح تُغلق على مشهدٍ أخير. خفتت الأصوات تدريجيًّا، وذابت في سكون الليل العميق، حيث لا يُسمع سوى صوت الرياح الخفيفة تهمس بين الأشجار.

وعندما جرّ الليل الطويل عباءته وغادر، وأعلن سَناءُ الفجر عن بداية يوم جديد، شعرتُ بشوقٍ لا يوصف يتدفّق في عروقي، وكأنه نهرٌ من الحماس لا ينضب، منتظرًا الساعة الثامنة على أحرّ من الجمر.

أسرعتُ نحو المكتبة، ورجلاي الدقيقتان تثيران سحابةً من الغبار. كانت المكتبة ملاذي المفضّل، حيث أجد بين رفوفها عوالم لا حصر لها، وأصواتًا من الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أُلاقيها فيتوقف الزمان.

لكنها لم تكن هنالك...

مضت ولم تعد، ومرّت السنوات كتنانير من النار، إلا أن بريق ذكراها ظلّ متوهجًا في رسوماتي، كجمرٍ لا ينطفئ...

رأيتُها مرةً أخرى بعد سنوات، بينما كنتُ أتسكّع مع أصدقائي على دراجاتنا الهوائية، بالقرب من المدرسة المتوسطة للبنات:

«هل تذكرينني؟

لا أظنكِ تذكرينني.

لكنني أذكركِ جيدًا.

هل ما زلتِ ترسمين وتقرئين الروايات الإنجليزية؟»

ابتسمتْ ابتسامةً خفيفة، ومضت مطرقةً إلى الأرض مع صديقاتها.

رأيتُها مرةً أخرى في منافسات المدارس الثانوية. تأمّلتْ على عجالةٍ لوحتي، ثم اختفتْ...

مرّت الأيام، وعلمتُ بعدها أنها انتقلت مع أهلها إلى فرنسا.

مضى كلٌّ إلى طريقه، ولم تبقَ سوى ذكرى.

التحقتُ بكلية الفنون الجميلة في الخرطوم. كان يومي الأول طويلًا، وأنا أحاول إيجاد طريقي في عالمي الجديد. جلستُ في الكافتيريا أحتسي كوبًا باردًا من عصير الليمون المنعش، في محاولةٍ لاستعادة وعيي من ضربة الشمس. وضعتُ رأسي على الطاولة... من خلال غشاوةٍ غطّت عينيّ، لمحتُ شبحًا يتجه نحوي:

«خالد؟»

فركتُ عيني وحدّقتُ في اتجاه الصوت الأنثوي الدافئ.

«كنتُ أبحث عنك طوال اليوم.

كنتُ موقنةً بأنني سوف أجدك هنا!»

لم أصدّق ما أراه. تلك العينان، والابتسامة النشوى. ازدهرت، ونضجت، وازدادت جمالًا. شعرتُ أن كلّ سنوات الغياب كانت محض قوسِ قزح، يوصلني أخيرًا إليها.

مرّت سنوات الدراسة كلمح البصر... عقدنا قراننا في اليوم التالي لتخرّجنا... وفي اليوم الثالث، كنا هنا، في أرض مونيه ورينوار.

أفقتُ من شرودي وأنا أحدّق في الأفعوانية الحمقاء التي تتلوّى مثل أفعى عجوز. ثلاثون عامًا مضت منذ أن اقترنت أرواحنا...

ابنتُنا تدرس الفنون الجميلة في Les Beaux Arts de Paris.

القمر قاربٌ حزين، يطفو فوق بحرٍ من الضوء الأثيري المتوهّج، تتسلل أشعتُه الفضية عبر النافذة، تبحث عن فتاةٍ خمرية اللون، دقيقة الملامح... كانت مهجة قلبي، زوجتي، وأم ابنتي.

كان اسمها... ياسمينا.

القمر يكون حزينًا حينما تكون بعيدة.

نخاف عليها حتى من هبّات النسيم، خاصةً عندما تقود سيارتها في هذه الأجواء الممطرة في شتاءات ديسمبر.

سمعتُ صوت المفتاح يدور في الباب الخلفي، فابتسمتُ دون أن ألتفت.

عاد السكون إلى نفسي، وأحسستُ بالأمان.

أعـرف وقع خطواتها... هي الوحيدة التي تمشي في البيت وكأنها تكتب شعرًا على البلاط.

ياسـمينا... عـادت مـن درس الخزف الليـلي، حاملةً بـين يديها قطعةً من الطين تحوّلت إلى فراشة.

تركتُ نُطق اسمها الفرنسي، وصرتُ أناديها: ياسمين.

كم أنتِ أندى من الياسمين، يا ياسمين.

وفي اللحظة التي وضعت فيها الفراشـة على الطاولة، شعرتُ أن كلّ الذكريات التي رسمناها...

لم تكن أبدًا مجرّد خيال.

(الزائر الأخير)

وصـل الزائر عند الغـروب، كأنما خرج من رحـم الظل، متماهيًا مع أزقّة لم تنسه.

لم يتلفّت، لم يسأل عن الاتجاهات، بل عبر السوق الترابي بخطوات واثقة. الشـمس غاصت في النهر، تاركةً وراءها ضوءًا خافتًا يلتصق بالجدران الطينية المتشـقّقة. عند الطاحونة القديمة، توقّف، مرّر يده على الجدار كما لو أنه كان هنا يوم طُلي بطين الآجر لأوّل مرة.

عنـد ناصيـة السـوق، توقّـف أمام قهـوة عطا الله، حيـث احتدم اللعب على طاولات الدومينو والكوتشـينة، وانبعثت رائحة الشاي بالحليب ممزوجة بدخان السجائر، والقرفة، والزنجبيل.

كان عطـا الله يجمع الأكواب الفارغة حـين لمح الرجل يقف عند المدخل، يتأمّله بصمت. رفع رأسه وسأله دون أن يُبطئ من حركته:

«أحسن الله عزاءكم يا زول؟ في من جيت معزّيًا؟»

ابتسـم الزائـر، كأنـه كان ينتظر السـؤال، وقال بصـوتٍ هادئ، كحكايةٍ تُروى على مهل:

«أتيتُ لأرى أصحابي القُدامى».

توقّفت يد عطا الله للحظة، ثم اعتدل في وقفته وسأله، وهو يشير

برأسه نحو الداخل، محاولًا كشف غموض الرجل:

«من هم أصحابك القُدامى، إذا جاز لي السُّؤال؟»

ذكر ثلاثة أسماء.

الأول مات قبل ثلاثين عامًا، في حادثةٍ أليمة لم تبارح ذاكرة القرية.

الثاني غرق في النيل أثناء فيضانٍ بعيد، ولم يعثروا على جثّته رغم كل الجهود.

أما الثالث، فقد ترك القرية إلى البندر، ولم يعد أبدًا، تاركًا وراءه ذكرياتٍ وشائعات.

شعر عطا الله بقشعريرة تسري في جسده، كأنما مرّ نسيمٌ بارد عبر روحه. تلعثم، وكاد أن يُسقط الصينية من بين يديه، لكن الزائر كان قد واصل طريقه، تاركًا خلفه أسئلةً حبيسة، لم تجد وقتًا للخروج من فمه المرتبك.

في الطريق، كان الزائر يشير إلى زوايا لم يَعُد يتذكّرها أحد، وكأنما استدعى صورًا من ماضٍ بعيد.

«هذا مخبز الطيّب ود الأمين... أين حاج الطيّب؟»

«الله يرحمه. حاج الطيّب مات من سنوات، والفرن يديره ابنه الطريفي».

«وهناك، تحت شجرة الدُّومة، كان حاج صديق يُغني الحكاوي

على نغم الطنبور؟»

«الله يرحم عمّ صديق. ما جاء بعده من يغنّي بالطنبور مثله».

كلما تحدّث، بدت كلماته كأنها ترسم خطوط قريةٍ قديمة محاها الزمن، ولم تبقَ منها إلا أطيافٌ في ذاكرته وحده.

بعضهم ظنّه ابنًا عاد بعد غيابٍ طويل، لكن كلماته لم تكن كلمات زائرٍ عادي، بل كلمات رجلٍ يتذكّر تفاصيل لم يعشها أحدٌ غيره، كأنه عاش أنفاس القرية.

عند النيل، وقف طويلًا، يتأمّل الماء المتحرّك ببطء تحت ضوء القمر الناشئ.

صبيٌّ صغير كان يجلس عند الضفة، يرمي الحصى في الماء، ويُراقب الدوائر وهي تتّسع،

كأنها تحاول احتواء سرٍّ قديم.

اقترب الزائر، جلس القرفصاء بجانبه، وملامحه تفيض بحنانٍ غامض.

«تعرف يا ولدي، النيل لا ينسى من مرّ بقربه».

نظر الصبي إليه بعينين واسعتين، تحملان الفضول والدهشة، وسأله بصوتٍ طفولي:

«من أنت يا حاج؟»

ابتسم الزائر، وهمس، كمن يودّع النهر وصمته الأبدي:

«أنا جدّك الكبير، يا ولدي».

ثم وقف، نفض الغبار عن ثوبه، وسار بعيدًا بمحاذاة النهر، حتى غاب عن الأنظار.

لم يره أحد بعد ذلك، أو ربما... ليس بعد.

في الصباح، حين فتح عطا الله باب القهوة، وجد شيئًا غريبًا على إحدى الطاولات:

صورة فوتوغرافية قديمة، باهتة الحواف، بلونها البني الداكن كذكرى لم تُعش قط.

في الخلفية، يقف رجلٌ يرتدي نفس «العراقي البلدي»، بنفس الابتسامة. نفس الملامح. نفس العيون التي تحمل سرًّا أقدم من الزمن.

وقف عطا الله مرتجفًا، يحاول أن يبتلع ريقَه الذي جفّ كأوراق الشتاء. تأمّل النهر الذي يجري نحو الشمال منذ أن وُجدت القهوة، مياهه ساكنة، كأنها لم تشهد شيئًا، لكن أعماقه كانت تهمس بأسرارٍ لا يفهمها إلا الذين عبروا... ثم اختفوا.

(التعرجات الأبدية: مونولوج النيل)

أنا النيـل، أصل الحكاية ومجراها، عتيـقٌ تهابني الصحاري وتحنّ إليّ الضفاف.

أتمـدد في الأرض كما تتمدد الذاكـرة في صدر عجوزٍ لم يَعُد له من الناس غير الحنين.

لا أتعجّل، فما العجلةُ إلا لأبناء اللحظة؛

أمـا أنا، فابنُ الأزل، أمشي الهوينى كأنني أسـتعرض ماضي العالم على صفحة مياهي.

أرنو إلى المارّين بي، فلا أُعيرهم إلا نظرةً من سحاب،

إذ أعرف أن الأرواح العابرة لا تمكث.

تمرّ بجانبي كما يلمع البرق في الليالي السكرى ثم تختفي،

بينما أنا... باقٍ، أتنفّس بثقة الأنبياء،

وأتحرّك بوقار الملوك حين يخطّون خطوتهم الأولى نحو السؤدد.

حين ظنّ الناس أنهم قادرون على ترويضي،

قيّدوا عنقي بسلاسل الطموح،

ولوّحوا بقبضاتهم في وجه انحناء ضفافي الرشيقة،

كخصرِ راقصةٍ في ليلةٍ مقمرة.
بقيتُ أنا، الرحّال الصامت،
أرسم مساري بيد الخلود،
كما يليق بالأزليّين، وكما يريد لي خالقي أن أعدو،
بلا كللٍ أو ملل.
أنساب عبر العصور كما تهمس الأسرار في الظلال،
حيث تتلاشى الكلمات وتبقى المعاني.
شهدتُ ولادة العالم قبل أن يُمنَح اسمًا،
ورأيتُ كيف تتشكّل الحياة من العدم.
أغنّي مع المراكبية الذين يعبرونني بأغانيهم التي تملأ الفضاء،
وأحتفل مع العريس الجديد في لحظات الفرح،
وأتناهى مع الذين قُبروا قُربي،
حيث تُروى الحكايات وتُحفظ الذكريات بين طيّات ترابي.
عندما تنحسر مياهي في مواسم الجفاف، يصرخ الملايين،
وعندما أفيض، يرتعد الآخرون.
هكذا أنا، متقلّب المزاج كالزمن،
غامض كالتاريخ.
شهدتُ حضاراتٍ تولد على ضفافي ثم تتلاشى كالضباب.

رأيتُ فراعنةً يبنون أهرامهم،
ونوبيين يصنعون مجدهم،
وسودانيين يكتبون قصائدهم في مروي،
وأبنائي في جنوب السودان، وهم يرعون الماشية في قُراهم.
أنا لستُ مجرّد ماءٍ يجري.
أنا الأب الحنون،
الذي يُربّت على أكتاف أهلي في أوغندا الرائدة،
وإثيوبيا الشقيقة،
في جنوب السودان الأبي،
وفي السودان الحبيب،
وفي مصر المؤمنة بأهل الله.
وعلى ضفافي، رأيتهم للمرة الأولى..
عاشقَين ستصبح حكايتهما أسطورةً تتهامس بها البرديات عند شواطئي.
جاءت هي في ربيعٍ باكر،
تُغمس أصابعها في مياهي، وهي جالسةٌ على صخرةٍ ملساء،
تنعكس صورتها المرتعشة كلّما سقطت دمعةٌ من عينيها.
عادت إليّ يومًا بعد يوم،

تبثّني أسرارها،
وأنا أحفظها كما تُحفظ الأمانات.
ثم أتى هو، في صيفٍ لزج،
طويل القامة، متردّد الخطى، يبحث عن عزلة... فوجدها.
عبر مجراي التقت عيناه بعينيها،
وشعرتُ باهتزازٍ قديمٍ ينبض بينهما.
قال بصوتٍ خافت، كنسيم المغيب:
«هل لي؟»
وأشار إلى البقعة بجانبها.
فأجابت دون أن تلتفت:
«النهر لا يملكه أحد».
ثم حرّكت جسدها قليلًا لتفسح له مكانًا.
شهدتُ حبهما يتفتّح مع الفجر،
ويتكثّف مع الغروب،
الكلمات المتردّدة تحوّلت إلى همساتٍ مشتعلة،
والقُرب إلى وعدٍ لا يُقال.
لقد انعكست في مياهي سماواتٌ ثائرة،
وسماواتٌ مثقلة باتفاقياتٍ كُتبت بلهجاتٍ لا يفهمها من يزرعون

على ضفافي.

تحت سطحي، رأيتُ صبيةً يصنعون طائراتٍ ورقية من الحلم،

ثم صاروا يُحلّقون بأجنحةِ الحرب.

ورأيتُ أبناء الوطن يتبادلون الطلقات على ضفافي،

ويمزّقون الأوطان التي كانت تزهو بأنعم الله،

وأرمي ظمأها بظلالي.

عرفتُ أيدي الفلّاحين الحافية،

خَشِنة، غارقة بالدعاء،

وفي ثنايا تجاعيدهم يختبئ الإيمان.

عرفتُ الملكات اللواتي استحممن في جدائلي،

وتركْن عطرًا غريبًا في دوّاماتي.

سمعتُ الناس ينادونني «بحرًا»،

ولم أُصحّح لهم، ولم أقل إنني عذب،

فهم يعرفون ذلك.

تركتُ اللفظة تنبت في الأثير.

أقف وحيدًا، أشاهد الموت يطفو على سطح الماء كالأشباح السوداء.

تتناثر الذكريات كبقايا السفن المحطّمة،

وفي الأفق، تتجمّع غيومٌ تحمل المزيد من الألم.
صرخات الأمهات تخترق صمت الليل،
وأصواتُ أطفالٍ لم يعودوا موجودين تتردّد في الهواء،
كهمساتٍ من عالمٍ آخر.
الماء يبتلع كلّ شيء بلا رحمة.
القرى التي كانت تعجّ بالحياة أصبحت مقفرة.
شهدتُ إمبراطورياتٍ تُشرق في ضوء الصباح،
ثم تذوب مع ظلال المساء.
قدّموا لي الحديد والخرسانة،
جسورًا، وسدودًا، وحواجز،
وحاولوا أن يُخضعوا مجراي،
فاحتويتهم بصبرِ العصور،
وأنا أعلم أنهم سيذوبون تحت لمستي،
كما تذوب عظامُ الأنواع المنقرضة في قيعاني العميقة.
الآن، يتحدثون عن المناخ همسًا،
كأنهم يخافون أن يسمعهم الهواء.
يقيسون مزاجي بأجهزة دقيقة،
ويرسمون خرائطي،

كأنّ الفهم يمنحهم سلطة.
لكنهم لا يعرفون أنني أحمل في عروقي
عصورًا لا تُذكَر في كتبهم،
وأنني انحدرت في مساراتٍ
لا يتخيّلها خيالهم،
عبر أراضٍ لم ترها أقمارهم الصناعية.
أتذوّق ما يعيدونه إليّ.
مواد كيميائية، أدوية، جزيئات بلاستيكية،
ومخلّفات الزراعة والمصانع.
كم هي مُرّة قرابين العصر الحديث،
إذا ما قورنت بقرابين الأقدمين،
أولئك الذين عرفوا قُدسيّتي،
وغسلوا أرواحهم قبل أن يقتربوا مني.
لقد احتضنتُ حقول الذرة،
ومدّدتُ أذرعي نحو جذور النخل،
ورأيتُ الجرّارات تزأر، ثم تختفي،
ليعود الثور حين صار البنزين أسطورة.
رأيتُ البشر يتركون حضن الأرض،

ليهربوا إلى صقيع الإسمنت،
ثم يعودون خاشعين،
يطلبون غفران الطبيعة.
قليلون من يُصغون إلى همسي،
لكنّ كثيرين ما زالوا يتجادلون في اسمي،
وفي حدوده،
وفي أغواري.
يقيسونني بالخرائط،
بالمسطرة،
ولا يدرون أنني أحمل في صدري
ذاكرةً تتجاوز الذاكرة.
أنا أتذكّر.
أتذكّر الصبيّ بخيطه الصدئ ومِعلاقه البسيط،
وأتذكّر الفتاة التي غنّت لي كما لو كنتُ حبيبها.
أتذكّر القارب الذي رحل ولم يعد.
أتذكّر حين كانت الأرض تكفي،
ولا يحتاج المرء تأشيرةً لزيارة ابن عمّه،
وحين كانت القهوة تُرتشف كأنها نغمة،

لا موعدًا على رزنامة.
لقد رأيتُ ما لا ينبغي لمخلوقٍ أن يراه،
وحملتُ أكثر ممّا ينبغي لي أن أحمِل.
ومع ذلك،
لا أشكو.
بل أظلّ أجري.
لأنني أعلم...
أن الإمبراطوريات تأتي وتذهب،
وأن الأسماء ستُعاد كتابتها،
وأنّ اللغات ستغيّر نبراتها،
لكنني،
ثابت، لا ألين،
أعدو بلا هوادةٍ لأعانق المالح عند برزخ اللقاء،
ويظلّ كلّ واحدٍ منّا في سبيله، لا يفقد هويته.
سأظلّ أُقبّل أقدام القرى،
وأفرد ضفافي أياديَ تحتضن المدن،
أحمل القمر على ظهري،
وأذوّب أشعة الشمس في مائي،

أهدهد جذور النباتات العطشى،
وأعطّر هامات النخيل من نفحات عبير أنفاسي،
وسأظلّ أبوح ببعض أسراري لمن يُصغي إلى دقات قلبي...
وربما،
في يومٍ ما،
سيجلس أحدهم عند ضفّتي،
لا طلبًا لإجابة،
بل ليُصغي لإيقاعي الأبدي،
وحينها فقط،
سيدرك أنني منذ الأزل،
كنتُ أروي،
حكاية الزمن.

الفهرس

(الحادثة الغامضة لآسيا بنت حاج الطاهر) ٥
بائعة الشاي: ظلال الحرب ٣١
(الحادثة الغامضة لاختفاء زيت الكركار) ٣٨
(فاطمة السمحة)..... ٤١
(حكومة الصف السادس)..... ٤٧
(بين النبضات)..... ٥٤
(بت المنى.. ما قلنا ليك)..... ٦٣
(ثلاث طلقات)..... ٦٧
(الدُّوبَاي) ٧١
(يا فرحة ما تمت)..... ٧٤
(الكارّو)..... ٨١
(في عينيها شيءٌ من بلة)..... ٨٥
(من تحت الرماد)..... ٩١
(القطرة الأخيرة)..... ٩٦
(همسات لدى الهاوية)..... ١٠١

(عزاء بأثر رجعي)..... ١٠٥
(سميري الفي ضميري)..... ١١٠
(الأرض العطشى)..... ١١٤
(الرجل الذي استعار يومًا)..... ١١٧
(ليلة لا تنسى)..... ١٢٣
(سيأخذه الطوفان)..... ١٢٩
(العشاء الأخير)..... ١٣٥
(مغامرات ود كيشوت في دار الريح)..... ١٤١
(خيارات صامتة)..... ١٤٨
(صندوق خلف الله ود البشير)..... ١٥٣
(الجبل الذي تأخّر في الانهيار)..... ١٥٧
(الفانوس)..... ١٦٠
(ياسمينا)..... ١٦٤
(الزائر الأخير)..... ١٧١
(التعرجات الأبدية: مونولوج النيل)..... ١٧٥